63

892.78
Ha395F A
C.1

في جبهة المجد

صفحة رائعة من تاريخ العلاقات السياسية بين لبنان ومصر
على عهد محمد علي باشا والامير بشير الشهابي الكبير

بقلم

عبد الله حشيمه

كل الحقوق محفوظة للمؤلف

67388

منشورات مكتبة الشبيبة طرابلس

١٩٤٥

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

ولبنان عربي ... أطل على الصحراء ابيض الوجه ، فمدت له يدها رفيقة ، ومد لها يده شقيقاً ، فاخضوضر الصخر على ملتقى اليدين ، وحنى الارز على الواحة ، يبعث اليها بنسمة من نسيمه ، فتردها اليه دفقة من عميم خيراتها..

« الرواية — وفاء »

في المزرعة الخضراء

قلب يحمل الحب وقلب يحفظ الضغينة

هي مزرعة صغيرة ، في قلب واد ظليل تحيط به الهضاب الخضر من كل جانب وتنساب فيه طريق حجرة تبين تارة وتختفي بين الاحراج والكروم .

والمزرعة للامير منصور الشهابي ، أحد انسباء الامير بشير الثاني حاكم جبل لبنان ، من السنة ١٧٨٨ الى السنة ١٨٤٠ .

والامير منصور كان من اخصام نسيبه هذا ، وممن رفعوا راية العصيان عليه ، منذ ولي الحكم ، انتصاراً لمنافسيه ابناء الامير يوسف .

وعندما تم النصر للامير الكبير على اخصامه ، ودان له هؤلاء واحداً واحداً ، الا بعضهم ممن آثروا النزوح عن لبنان على الدخول في طاعته ، كان الامير منصور من الذين قدموا له الخضوع والطاعة .

وانصرف عن السياسة الى مزرعته المتقدم وصفها .

واقام فيها وابنته الوحيدة وفاء ... الابنة التي لم يكن له من عزاء سواها بعد موت امها ، ولعله لم يهجر السياسة ولم يؤثر عيش الوحدة ، بعد ان قضى الشطر الاكبر من حياته ، في خضم العالم الزاخر ، الا من اجلها .

ووفاء كانت آية في الجمال والذكاء .

وكان لها ، منذ نعومة اظفارها ، رأيها في سياسة البلاد، والامير بشير كان ، في نظرها ، أجدر الامراء بادارة دفة هذه السياسة .

◇◇◇

كان الوقت عصراً ، والربيع يكسو المزرعة والهضاب المحيطة بها حلة خضراء ، من نسيجه السحري ، ويغمر ارضها وفضاءها بعبق من شذاء انفاسه العطر .

ووفاء تتنزه ورفيقة لها من عمرها في احدى الغابات المجاورة.

ولرفيقتها هذه ـ وهي ابنة قيم املاك ابيها ـ من الظرف والرواء القروي ، فضلا عن اخلاصها الساذج ، ماجعلها تميل الى عشرتها وتتخذها امينة لسرها .

ولوفاء اسرار ... كغيرها من الفتيات .

وقد طاب لها التحدث عما يخالج صدرها ، بعد جولة قصيرة في الغابة جمعت في خلالها بعض الازهار البرية ، وجلست في ارجوحة منصوبة هناك تشم ازهارها وتتنهد ، فقالت ورفيقتها ممسكة بحبل الارجوحة تهزها برفق :

ـ ماكان اهنأني ياسلوى ، لو ان لي قلباً واحداً يبادل قلبي الشعور في هذه الجنة .

وسلوى تشعر بأن في صدر اميرتها سراً تجهد النفس في المحافظة عليه ، فقالت :

ـ مع ان لك بدل القلب الواحد قلوباً مايطيب لها الا هناؤك .

ـ أجل ، ولكن ... ولكن القلب الذي اريده هو ... هو

غير هذه القلوب .

وبعد سكوت قصير :

ـــ هو قلب فتى اراه في الحلم ، ولا اجرؤ حتى على مناجاة طيفه في اليقظة ... لماذا انا اميرة ؟

ـــ أتسمح لي اميرتي بسؤالها عن الفتى ؟

ـــ اريد ان تسأليني عنه ... ان كتمان سري يكاد يقضي علي . وما انت بعد بلائمتي على حبه متى عرفت اي فتى هو .

وبعد تردد :

ـــ أتذكرين يوم كان ابي يحارب الامير في صفوف اخصامه ، وبعث الامير بكوكبة من فرسانه لاحتلال دارنا ؟

ـــ وكان على رأس تلك الكوكبة فتى ...

ـــ هو ذاك ... هو ذاك الفتى الجميل كالحلم النبيل كالامراء . لماذا لم يكن اميراً بدمه كما هو امير بنبله ؟

وسكتت تصغي الى وقع حوافر جواد طرق فجأة اذنيها ... وبان على الاثر فارس يهبط من على هضبة نحو الطريق المتقدم وصفها ، ثم غاب بين الاشجار ، فقالت :

ـــ ترى يكون هذا الفارس ؟

◇◇◇

كان الفارس الهابط بجواده ، من على الهضبة ، شاكي السلاح ، تحت عباءة فضفاضة يلتف بها ، وملثم الوجه بحيث لا يبدو منه سوى عينيه .

وكانت عيناه تبعثان من وراء اللثام شرراً .

وكان الجواد يهبط به وئيداً وهو لايستحثه ، كأن ليس هناك مايستعجله ، او كأنه منصرف عن التفكير في طول الطريق او قصرها الى التفكير في شيء آخر .

ولم يكن يهتم لما حواليه من جمال الطبيعة ، كأن امراً اهم من هذا الجمال يشغل اهتمامه .

وعندما انتهى الى الطريق توقف ... والاميرة ورفيقتها تراقبانه من خلال الاشجار المتشابكة ، وهو لايشعر بوجودهما ، ثم راح يتابع طريقه .

وكان يقصد الى المزرعة . ولم تدر وقاء لماذا شغل امره بالها ، فقالت :

ـ لنعد الى الدار ... ان قدوم هذا الفارس علينا ليس لامر عادي .

◇◇◇

تعود الامير منصور منذ انصرافه الى مزرعته ان يقضي معظم نهاره متجولا في هذه المزرعة ، حيث كان يشرف على مزارعيه ويتبادل واياهم الآراء حول مايهمهم من الشؤون الزراعية ، ويعود في المساء ليجلس الى ابنته ساعة يتملى فيها من حديثها العذب ، ويأوي بعدها الى فراشه .

وكان قد قام في عصر ذلك اليوم بجولته العادية وعاد الى داره ، وتوقف في فنائها الخارجي ينظر الى جواد اسود كالليل مربوط

هناك وهو يشرب من دلو يقدمه له سائسه ، وعندما شعر الجواد بقدومه كف عن الشرب ونظر اليه نظرة ذكية ... فدنا منه برفق وربت على ظهره وخاطبه قائلا :

ـ انا اعلم انك مللت العيش هنا ، عيش الراحة والخمول ، ولكن للضرورة احكامها يا ادهم

ثم قال للسائس :

ـ خذه ونزهه قليلا في الغابة .

وراح يصعد الى الدار على السلم الحجرية المؤدية اليها حتى انتهى الى رأس السلم ، وسمع وقع حوافر جواد ، فالتفت ليرى من القادم واذا هناك الفارس المتقدم ذكره ، فلم يعرفه اولا لتلثمه ولكنه عرف بداهة انه ليس من العامة فوقف ينتظر وصوله .

وحمحم جواده كأنه يقوم هو الآخر بواجب .

وما انتهى الفارس الى الفناء حتى ترجل بخفة ، وصعد الى السلم رشيقا ، بعد ان ترك جواده للسائس ... ونزع اللثام عن وجهه قبل ان يصل الى الامير ، فغمغم هذا بدهشة :

ـ الامير سليمان ؟

◇◇◇

لحظت وفاء من بعيد وهي قادمة ورفيقتها نحو الدار ، وعيناها لا تفارقان الفارس الغريب ، دهشة ابيها عندما نزع هذا اللثام ، فرددت بصوت مضطرب :

ـ من يكون هذا الفارس ؟

ولم تشك في كونه من غير العامة ، قالت :

ـ لو انه من العامة لما صافحه والذي مصافحة الند للند ، ولما استقبله في الدار ، بل في بيت الضيافة .

وكانت رفيقتها تصغي اليها ولا تجيب ، حتى انتهتا الى سلم الدار الخاصة بالخدم ، وهي سلم ضيقة في آخر الفناء ، فقالت الاميرة :

ـ لنصعد من هنا ... اريد ان لا يراني ، وان اسمعه متكلما .

◇◇◇

الامير سلمان من انسباء الامير منصور الاقربين ، في اوائل العقد الرابع من عمره ، وهبه الله كثيرا من قوة الجسد ، ولم يهبه شيئاً من جمال الوجه .

وهو الى ذلك رديء الطبع .

وكان من اخصام الامير بشير العنيدين ... وعندما ادى معظم الامراء الطاعة للامير ، ظل هو على مخاصمته وعناده ، ونزح عن لبنان مع من نزح ، ممن هم على رأيه .

وكان في عداد من أخذوا بجمال وفاء .

وقد طلبها يوماً الى ابيها ... ولكن وفاء ردته خائباً لسوء خلقه وخلقه ، ولما بينها وبينه من خلاف في الرأي حول سياسة الامير .

◇◇◇

قال الامير منصور بعد ان دخل ونسيبه ذاك وجلس واياه جنباً الى جنب في قاعة الاستقبال ، والدهشة لم تفارقه بعد :

ـ من اين انت قادم ... لقد جاءني انك نزحت عن لبنان اباء ان تدخل في طاعة الامير ، فهل هذا صحيح ؟

فأجابه سلمان دون تردد :

ـ أجل ... لان الدخول في طاعة سفاح مغتصب مثله عار لا يرتكبه أبي .

فأمتقع وجه الامير منصور لهذا الجواب .

أيكون هو غير أبي في نظر نسيبه هذا لدخوله في طاعة ذاك الذي يدعوه سفاحاً مغتصباً وتدعوه ابنته بامير البلاد ومنقذها الاكبر ؟

ولكن سلمان لم يأبه لأمره ، فقال :

ـ أدخلت انت في طاعته ؟

قال وهو يجتهد في اخفاء ما به :

ـ انا لاانظر الى الرجل نظرك انت ... أليست الامارة هدفاً لكل من يرى نفسه قادرا على بلوغها . لماذا يكون الامير بشير وحده وقد نال هذه الامارة بالسيف مغتصباً سفاحاً ؟

ـ لم يكن هذا رأيك فيه من قبل .

ـ ما كنت احسب انه اهل للحكم .

ـ وهو أهل له الان في نظرك ؟

لقد برهن على ذلك .

ـ بمحالفته سيد عكاء وارهاقه البلاد بالضرائب .

ـ أعندك من لا يفعل هذا ؟

وكان في لهجته متحدياً ... ولما لم يجبه سلمان قال :

ـ ان ممالقة سيد عكاء امر لابد منه مادام هناك من يمالق غيره من عمال الدولة ... ولن يتم لنا الاستقلال الا اذا اتحدنا ومشينا جميعاً تحت رايته .

فصرف سلمان باستانه وقال :

ـ كنت ارجو ان آتي واراك على شيء من معرفة مايجري على مسرح السياسة ، واذا انت منصرف الى مزرعتك وكأنك في عالم غير هذ العالم المتمخض بأشأم الحوادث .

ـ لعل هناك ماأجهل فهات .

ـ ان اميرك الكبير ذاك يريد اخراج البلاد من تحت نير الاستانة ليضعها تحت نير مصر .

ـ ان من يعمل مثله للاستقلال لايفعل هذا .

ـ هكذا تقول ابنتك .

وكان في لهجته ماأثار بعض غضب الامير منصور ، فقال :

ـ خل ابنتي وشأنها ... والامير يعرف بعد كيف يعمل لمصلحة بلاده .

ـ ان في ارتمائه باحضان العزيز خراب البلاد .

ـ هو ادرى مني ومنك بعواقب عمله .

ـ ماهو ادرى ... ويجب ان لاندعه يفعل . ان العزيز يتهيأ للدخول والاستانة في حرب لانهاية لها ، والسفاح يريد زج البلاد في

هذه الحرب لا ترضائه .

ـ من يقول هذا ؟

ـ ارأيت انك تجهل ما يجري على مسرح السياسة ؟

والامير منصور بالفعل يجهل ذلك ... وكل ما يعلم ان الامير والعزيز صديقان ، وان صداقتهما أصبحت حديث الناس ، مذ لجأ الامير الى مصر فراراً من غضب الاستانة ، وعاد منها مزوداً برضى العزيز وحمايته .

ورآه سلمان يصغي اليه بانتباه ، فتابع :

ـ ان الزمن الذي قضاه ابنه الامير أمين في مصر لم يكن لمجرد التنزه . ومنذ عاد من هناك والرسل تغدو وتروح بين القطرين . والعزيز يتهيأ ... والعارفون بأسرار السياسة يؤكدون انه سيزحف على سورية ، ومنها على الاستانة ، وان الامير وعده بدخول الحرب الى جانبه ، والاستانة تعرف هذا وتستعد بدورها لملاقاته .

ـ ماأبعدني هنا عما تقول .

وكان صوت سلمان قد ابتدأ يتهدج ، فصاح :

ـ ولكننا سنحول بينه وبين البر بوعده .

وتوقف ينظر الى وجه نسيبه كمن يقرأ فيه سر ما ابتدأ يجيش في صدره ... والامير منصور لم يكن ذلك المؤمن الذي لا سبيل الى زحزحته عن عقيدته . وهو لم يعتنق هذه العقيدة في صدق وطنية الامير بشير الا من عهد قريب على يد ابنته . وقول سلمان الآن يدعوه الى التفكير ... قال ، وقد ابتدأ يفكر :

— و كيف تفعلون بعد ان شردكم بسيفه ولم يبق في طول البلاد وعرضها من يجرؤ على نصرتكم ؟

فضحك سلمان بخبث ، وقال :

— مايزال في البلاد أرباب جرأة ... أما أنت واحداً منهم ؟

فعلت وجه الامير منصور حمرة هي مزيج من الخجل والقهر ، وهمّ بجواب ما عتم ان عدل عنه ، فقال :

— اما انا فقد كرهت الحرب وتركت السيف الى المحراث .

قال كمن لايرضى له بذلك :

— دع المحراث للخدم والفلاحين ... فأنت امير خلقت للسيف تخدم به قومك وبلادك .

وراح يخبره متحمساً :

— لقد اتصلت بالكثيرين من امراء البلاد واعيانها ، فوجدتهم جميعاً على رأيي في سياسة الامير الحرقاء ، واتفقنا على امر .

— على مَ ؟

— على ان ندع الاميال الخاصة جانباً ونضع مصلحة البلاد العليا نصب اعيننا ، فلا نبحث في من يتولى الامارة بل في انقاذ البلاد اولا ، حتى اذا تم لنا النصر بايعنا من هو اهل للحكم ، واقنا من سيوفنا وصدورنا سياجاً يحميه عند الحوادث ، ومن يعلم ... .

— ماذا ؟

— ان كان لايقع اختيارنا عليك .

ـ انا ؟

◇◇◇

مانعودت وفاء استراق الاحاديث من وراء الابواب والجدران .. ان هذا شأن الفضوليين وقليلي الادب وما هي كذلك . ولكن ضيفهم الغريب ذاك الذي رأت اباها يستقبله بدهشة ، عندما رفع اللثام عن وجهه ، اثار اهتمامها وجعلها تستسهل كل صعب في سبيل معرفته.

وعلى هذا دخلت الدار من باب الخدم .

وكانت هناك حجرة صغيرة مجاورة لقاعة الاستقبال ، وهي تعلم ان في الجدار الفاصل بين هذه الحجرة والقاعة ، كوة تستطيع ان تسمع منها كل ما يدور هناك من حديث ، فالت لسلوى :

ـ سأدخل هذه الحجرة لصة ، وما تعودت ذلك من قبل ، فلاتدعي احداً يشعر بوجودي فيها .

ولما صارت في الحجرة واقفلت الباب خلفها ، دنت من الجدار المتقدم ذكره ، ووقفت تحت الكوة التي فيه تستمع .

وكتمت انفاسها لئلا تفوتها كلمة .

وعرفت الرجل ... وعرفت غايته من المجيء على تلك الصورة ، وارتاحت الى ما سمعت من ابيها اولا . ثم داخلها القهر من تراخيه . وكادت تهتف اخيراً وقد سمعت الخبيث يغريه بالامارة :

ـ لاتصدق ...

◇◇◇

قال سلمان لوفاء وقد جلس الى المائدة امامها، وابوها صامت لايتكلم :

ـ كيف تقضين اوقاتك هنا ؟

فأجابته بلهجة من لا يروقها التحدث اليه كثيراً :

ـ كما تعودت ان أقضيها في اي مكان آخر .

ـ أما تزالين مولعة بالمطالعة والرياضة ؟

ـ قليلا .

ـ والسياسة ... أما لك من رأي جديد فيها ؟

ـ ان رأيي فيها لايتغير .

ـ لاترين غير الامير بشير اهلا للحكم ؟

ـ ان كان عندك سواه فهات .

ـ أما في البلاد احد ؟

ـ كلا ، مادام لم يبق هناك من يجرؤ على لقائه حاسراً في ميادين الطعن والضرب .

وكان جوابها صفعة ... فسكت على المها وفي نفسه اشياء .

◇◇◇

بعد العشاء جلس الاميران يتناولان القهوة ، امام نافذة كبيرة تطل على الخارج ، وكانت وفاء قد انصرفت الى غرفتها ، فقال سلمان :

ـ ماتزال اياها ، جمالا وعناداً ... لقد حاولت ان استماء

منها فلم أستطع . وانا معجب بها وان كانت تخالفني في الرأي . أما فكرت في الزواج بعد ؟

ـــ ولن اراها تفكر اكراماً لي .

ـــ ومن يبقى لها بعدك ؟

ولما لم يجبه تابع :

ـــ ليس العناد بمحمود ابداً . . . لاأقول هذا لاطلب من جديد يدها . لقد وددتني بالامس خائباً ، ولن ارضى بالخيبة مرة ثانية . . . مع اني قادر على اسعادها لو تزوجتني . أيكون اختلافنا في الرأي سبب نفورها مني ؟

ـــ لم تقل هذا .

ـــ وانت مقتنع بكونها لم تفكر في الزواج بعد ؟

ـــ لو فكرت لاطلعتني على فكرها .

ـــ ربما كان هناك مايمنعها من اطلاعك عليه .

ـــ كأي شيء ؟

ـــ كأن يكون الفتى الذي تهواه من غير طبقتها .

ـــ محال .

ـــ لاشيء محال . . . وانا انصح لك بالسهر عليها . ان الحب كاللص قد توصد الابواب في وجهه فيدخل من النوافذ .

◇◇◇

وعبثاً حاول الامير منصور ان يأوى الى فراشه في تلك الليلة .

فالدار على رحبها لم تعد تسعه فكيف بغرفة منها ، بعد سماعه ما سمع :

ـــ ان الأمير يغامر بالبلاد مغامرة خطرة .

واذا اعترفت له ابنته بالمقدرة والعظمة ، وجاراها هو في اعترافها حيناً ، فهذا لايعني ان السكوت واجب على مغامرته .

ان مصلحة البلاد فوق كل شيء .

وصدق سلمان حين قال ان المحراث لم يخلق للامراء .

ولمَ لايكون صادقا بقوله ان الاختيار قد يقع عليه ، حين يتم لهم النصر على الامير ، فيتولى هو في مكانه ؟

أما هو اهل لذلك ؟

لقد قال سلمان : « ان من ينال الامارة بالسيف لا بد مغتصباً » فأية غضاضة عليه ان جرد الآن سيفه لمصلحة بلاده اولائم لمصلحته؟

وكان يروح في الدار ويجيء على غير هدى ، وخيالات افكاره تتراءى له في الظلمة اشكالا . . . ولم تتبدد هذه الخيالات الا على اشعة نور ضئيل كان يتسلل من خلال غرفة ابنته .

◇◇◇

ـــ وفاء ... أتسهرين ؟

وكان صوته يرتجف وهو يناديها . وكان صوتها يرتجف مثله حين فتحت له الباب ، وتكلفت الابتسام قائلة :

ـــ أجل ... لانك انت ساهر .

ـــ ومن قال لك اني لم انم ؟

ـ قلبي ... ووجود سلمان هنا ... ان من كان مثله لا يرتاح ولا يدع احداً يستريح . ماذا جاء بحمل اليك ؟

ـ ما لا تطيب معه الراحة ... ان الامير بشير يغامر بالبلاد مغامرة لا يصح السكوت عنها . أتدافعين عنه ان انا اخبرتك بمغامرته ؟

اذا وجدت الى الدفاع سبيلا .

ـ لن تجدي اليوم ... انه يريد الزج بالبلاد في حرب لا خروج لها منها .

ـ ضد من ؟

ـ ضد الدولة ، ارضاء لعزيز مصر .

ـ وهل اعلن العزيز الحرب على الدولة ؟

ـ سيعلنها قريباً .

واذا لم يحارب الامير الى جانبه أيعدل عن الحرب ؟

ـ كلا .

ـ واذا حارب ضده ، أما يكون عمله مغامرة ؟

ـ ليبق على الحياد .

ـ ان الحرب متى طغت امواجها تذهب بالمحارب والمحايد على السواء ... وعندي ان الخطر منها على المحايد اشد منه على المحارب ... لان هذا يجد نفسه امام عدو واحد في حالة انتصاره عليه ، و ذاك امام عدوين من انتصر منهما ـ ولا بد من انتصار احدهما على الآخر ـ

خلا له الجو لينشب فيه مخالبه .

— ولكننا شعب ضعيف لاطاقة له على التضحية ابداً .

— لا يؤخذ الاستقلال الا بالتضحية .

ولم يبق له ما يقول ؛ فسكت . . . وبقي لها ان تقول شيئاً فقالت :

— اما يزال سلمان عاتباً علي ؟

— بعض العتب لنفسه ، وبعضه الآخر لمصلحتك .

— لمصلحتي ؟

— يجب ان تفكري في المستقبل .

— المستقبل بيد الله .

— وانا على رأيه ... من يبقى لك من بعدي اذا مت ؟

— لاتقل هذا .

— أخالد انا يابنية ... أما يجوز ان ادعى غداً للحرب واموت في سبيل الواجب ؟

— يجوز ... وما يهم وفاء ان تظل وحيدة في العالم . ان لها من قوة النفس والارادة ما يقيها شر الاخطار . ولو لم يكن قلبها الخافق للحب هو الذي يسيطر الان عليها لبددت مخاوف ابيها بكلمة ولم يكن في وسعها البوح بما يخالج هذا القلب ... قالت :

— ان الزواج كالموت يا ابي ، لايعلم المرء متى تجيء ساعته ، فلندع للايام ما نحن في هم من امره .

ماترك سلمان المزرعة في صباح اليوم التالي حتى اقبل عليها فارس تهامس الناظرون اليه قائلين :

ـــ من فرسان الامير .

وطلب مقابلة الامير منصور . ولما مثل بين يديه أدى التحية الواجبة ، وقال :

ـ ان مولاي يدعوك اليه .

ودعوة الامير بشير لاترد ، فأطرق الامير منصور لحظة ثم قال:

ـــ اليوم ؟

فأجابه الفارس ، كمن يتكلم بلسان مولاه :

ـــ غداً ، ان شئت .

وابى الا ان يعود ادراجه .

◇◇◇

ـــ ما ذا يريد الامير ؟

لايعلم ... وقلبه يدله على اشياء كثيرة . وكان يود لو ان هذه الدعوة لم تأته اليوم . فهو في حيرة مما حمل سلمان اليه ومما سمع من ابنته .

أيصدق سلمان ؟

أيصغي الى قول ابنته ؟

لن ينتشله من حيرته الا وفاء .

ووفاء كانت تنتظر ان يدعوها ويطلعها على ماجاء يحمل رسول

الامير ، كما تعود ان يفعل استئناساً برأيها ، مذ قدم للامير خضوعه ، وكان لها الرأي الاول في ذلك . واذا هو يدعوها ، قال :

— ان الامير يدعوني اليه ، فماذا ترينه يريد ؟

فأجابته على الفور :

— لاشك في أنه يستعد للحرب الى جانب العزيز ، ويريد الاستئناس برأي اخصائه ، قبل ان يدعو البلاد اليها .

— وترين ان اذهب ؟

— يجب ان تذهب .

— ما ازال على رأي سلمان .

فنظرت اليه نظرة من تستغرب بقاءه على هذا الرأي ، وقالت :

— لن يكون خراب البلاد من وراء هذه الحرب الا اذا تصدعت وحدتها ، وخائن هو كل من يفكر في تصديع هذه الوحدة .

واردفت قائلة :

— سأذهب واياك غداً الى بيت الدين .

قصر بيت الدين

رمز وحدة لبنان وعنوان حريته واستقلاله

قصر بيت الدين ، وبعلبك ، والارز .

ثلاثة يدل بها لبنان على سواه .

وله ان يدل ايضاً ببعد همة ابنائه ، وتمسكهم بحريتهم ، من اجلها يعيشون ، وفي سبيلها يموتون .

والموت في سبيل الحرية حياة .

◇◇◇

بنى الامير بشير قصر بيت الدين لا ليكون معقله المنيع ، في الحروب التي خاضها لتوحيد كلمة اللبنانيين وبناء صرح حرياتهم ، بل ليكون رابطة الوحدة التي اراد وعلم الحرية التي ضحى في سبيلها بحريته وحياته .

و كم في قصر بيت الدين ذاك من جلال .

و كم فيه من ذكرى يقف المرء امامها صامتاً وهي تتكلم .

واروع الذكريات تلك التي تعيد الى مخيلتنا صورة العهد الذي رفرف فيه علم مصر الى جانب علم لبنان، فوق ذلك القصر التاريخي رفرفة علمين حليفين يسيل الدم اللبناني تحتهما كما يسيل الدم المصري

لغاية واحدة هي جمع كلمة العرب وتحريرهم من ذل العبودية .

◇◇◇

حالف امير لبنان عزيز مصر .

ومصر ولبنان ... بلدان شقيقان جمعتها العروبة على الخصيب الممرع ، من بقية مجد قديم ، ومدنية محسنة هما اللذان صقلاها ووزعاها بسخاء على العالم .

والامير بشير ، ومحمد علي باشا ، سيفان ماضيان .

وما ذل لبنان ، ولا ضيعت مصر ، ولا انحنى رأس العروبة ، الا لان السيوف التي بنت لها المجد قد صدئت ، ولم يعد بريقها الذي يهر الكون يخيف الطامعين بها يبنون لطريق مجدهم ، على انقاض مجدها التليد الدائر .

فالعزيز والامير يريدان اعادة بنيان ذلك المجد .

◇◇◇

كان الامير وشاعره بطرس كرامه في حديقة القصر ، يتفرجان بما هناك من آيات الربيع الساحر .

والامير يحب الشعراء ويفسح لهم في مجلسه ، شأن الامراء والملوك الاقدمين ، لانهم في نظره كما هم رجال الصحافة اليوم من ارادوا رفعوا ، ومن ارادوا خفضوا ، ببيت واحد من شعرهم .

وكان قصره منزلا رحباً لكل من يؤمه منهم .

وبطرس كرامه في مقدمتهم منزلة و كرامة لديه .

وقد جعله شاعره الخاص ونديمه وامين سره .

و كان يفضي اليه بوساوسه وهمومه ، كلما كانت له هموم ووساوس وهو يعرف كيف يسري عنه بحكمة من حكمه البليغة ، وحين تعوزه الحكمة بقصيدة عصماء من روائع شعره .

والربيع في حديقة قصر بيت الدين ما اراد رب هذا القصر فتنة وسحراً .

ومع ذلك فالامير مهموم .

و كان الشاعر ينشده قصيدة في « ربيع لبنان » وقد انتهى منها الى قوله :

لك لبنان يفرش الزهر للمجد ابتهاجاً على بساط الربيع
ولك المجد ما بنيت وما تبني ... ...

فقاطعه قائلا :

— ليس لبنان لي وحدي يابطرس ... ان ذرة التراب التي هي انا لاتفضل في الحق اية ذرة اخرى من ترابه . ولكني وانا امير هذا الجبل ، والمسؤول الاول عنه ، لن اسمح لاعي من الناس ، كائنا ما كان شأنه ، بالاعتداء على حق من حقوقه .

وارتفع صوته قليلا :

— والوحدة التي حققتها بسيفي هي من اقدس هذه الحقوق ، ومقدرات البلاد وقف عليها ، فلتحذر الايدي التي تمد اليها بسوء .

واطل الغضب من عينيه :

ـــ ايقال اني اريد تحطيم نير الاستانة بنير مصر ، وان هذا لن يكون أخف من ذاك على عنق رعيتي !

وزأر قائلا :

ـــ ان لبنان ومصر شقيق وشقيقة ... ومهما يبلغ من جور احدهما على الآخر ، ان كان ثمة من جور ، فان الجور هذا لن يعدو حد جور الشقيقة على شقيقها والشقيق على شقيقته .

وعاد الى القصر والشاعر يتبعه صامتاً حتى انتهى الى مكتبه .

◇◇◇

كان قصر الامير بشير تحفة بما فيه من رياش عربي ثمين ، وبما يحتوي من كتب واسفار نادرة ... والامير مولع بجمع مثل هذه الاسفار والكتب ، ويطيب له ان يطالع منها كل ما يبحث في تاريخ الامم .

ولما دخل المكتب وقف الشاعر على الباب ينتظر امره ، فقال له :

ـــ ادخل .

ولما امتثل القى الامير نظرة الى الخارج واقفل الباب ... ثم تقدم من صندوقة حديدية جميلة كانت مستودع اسراره ، ففتحها بمفتاح يحتفظ به في جيبه واخرج منها ورقة مطوية ... والشاعر ينظر اليه صامتاً وهو على يقين من ان هناك سراً يريد اطلاعه عليه .

فقبض الامير على الورقة بيده كمن يقبض على شيء من روحه ، وقال :

ـــ اندرى ما هي هذه الورقة ؟

فانحنى الشاعر انحناءة العبد الذي لا يطمع باكثر مما له ان يعلم ، وقال :

ـــ انى لي ان ادري يامولاي .

قال بلهجة الظافر :

ـــ انها صك حرية لبنان واستقلاله .

وتابع بحرارة تمازجها الحدة :

ـــ ان الامير بشير يعرف كيف يعمل لخير بلاده ... وعزيز مصر ، ذلك الرجل العصامي ، لا يريد للبنان ، ولا لاي قطر عربي ، الا ما يريد لمصر نفسها .

وناوله الورقة قائلا :

ـــ اقرأ ، وانت كاتم سري .

ولما انتهى الشاعر من القراءة رفع رأسه قليلا ، فقال له بلهجة لا تخلو من الفخر :

ـــ ما ذا رأيت ؟

ـــ ما يرى مولاي تماماً ... ان العزيز برسالته هذه يؤيد حق لبنان بالاستقلال .

ـــ وما ذا بعد ؟

ـــ ويرى ان البلاد العربية وحدة . على المخلصين من ابنائها ان

يتفاهموا ، وان ينبذوا المنافسات العقيمة فيما بينهم ، اذا ارادوا ان يكونوا اقوياء ، وان يخلعوا عن اعناقهم نير العبودية .

ـ كم مرة قلت هذا ...

وكان قد استعاد الورقة الثمينة منه ، فقال :

ـ اسمع ما اقوله لك ... ان العزيز مخلص وانا كذلك . ونحن متفاهمان على مافيه خير لبنان ومصر وبلاد العرب جميعاً . فاذا قدر لنا ان نفوز في مانحاول لايبقى امام بلداننا العربية الا ان تتفاهم بدورها ليكون لها الخير المنشود .

واندفع بحرارة :

ـ ولن يكلفها تفاهمها كثيراً ... يكفي ان يشعر كل من ابنائها بحاجته الى الآخر . ان ابن مصر لاغنى له عن ابن لبنان ، وابن لبنان لايقوى على عمل لا يؤازره فيه ابن سورية ، وابن سوريه ضعيف عاجز ان لم يكن له ، من ابناء العراق ونجد واليمن ، من يلتف حوله في الملمات .

وتحولت حرارته الى ايمان :

ـ يكفي ان يشعر كل منهم بهذا ليزول ما بينهم من تنابذ ، ولا يبقى للغرباء من ارباب المطامع ان يتدخلوا في شؤونهم ، كما تعودوا ان يفعلوا وكما نراهم يفعلون . وتجارتهم ابداً هي الرابحة .

والشاعر من رأي اميره ، ولكن ... قال :

ـ حبذا التفاهم هذا يامولاي ، ولكن ... ألي ان اتكلم

بصراحة ؟

ـــ تكلم .

ـــ لقد كانت البلاد العربية وحدة ايام كانت خاضعة لرأس واحد وتعدد الرؤوس هو الذي فكك وحدتها ... وأنت والعزيز متفاهمان والاخلاص رائد كما ، ولكن ... أيكفي هذا لاقناع الآخرين من عبيد الشهوات بضرورة التفاهم ؟

ـــ العبيد ... السيف يخفض رؤوسهم ليرفع رؤوس الاحرار في مكانها .

ـــ والشعب ... هذا الشعب الذي عودوه الذل ، أيرضى بذلك؟

ـــ لن يكون هذا الشعب ذليلا متى حل النظام محل الفوضى ، والعدل محل الظلم ، والرخاء محل البؤس ، ولم يبق ثمة من يعتدي على حقوقه و كرامته .

فسكت الشاعر قليلا ، ثم قال:

ـــ أيسمح لي مولاي بسؤال بعد ؟

ـــ قل .

ـــ أتبقى للبنان امارته متى تمت الوحدة ، وتبقى لها أنت ؟

فنظر الامير اليه نظرة باسمة ، وقال :

ـــ ما أنت بالساذج يا بطرس وان طرحت هذا السؤال ... أإذا كانت للبنان امارة ، و كنت أنا لها ، في عهد من هم غرباء عنا ، يدخل في روعك ان هذه الامارة تزول ، وازول أنا معها ، والعهد

عهد من نحن وهم اخوان ، في السراء والضراء ؟

وقطب حاجبيه الكثيفين متابعاً :

ـ ما يزول الا العبيد والخونة ، وأبقى أنا وأنت نمد رواق الامن في الامة ، ونقطع الايدي المعتدية عليه من أجل الامة نفسها لا من أجل ذلك الجالس على عرش من آلام هذه الامة وراء أسوار عكاء .

وبدت منه اشارة فهم الشاعر منها أنه يأمره بالانصراف فانصرف .

◇◇◇

راجع الامير رسالة العزيز ، بعد انصراف شاعره وتوقف أمام الفقرة التالية منها :

« ان حق لبنان بالحرية كحق مصر ... والامارة اللبنانية لك ولذريتك من بعدك ، ومصر تعترف بها على انها جزء من العالم العربي . وأنا وانت حليفان على كل ما فيه خير هذا العالم ... » .

أما قرأ شاعره هذا ؟

ان ذلك الرجل الامين يخاف وخوفه في غير محله .

وأعاد الرسالة الى مكانها السري ... وكان عبده مسعود واقفاً على بعد بضع خطوات من باب المكتب ، كما تعود ان يفعل كلما رأى مولاه في خلوة وأحد امنائه ، فناداه :

ـ مسعود .

ولما اقبل قال له :

ـــ ادعُ لي فهد العرب .

◇◇◇

فهد العرب من قواد فرسان الامير ، له الشباب الغض ، والطاعة النبيلة ، والساعد المفتول ، والجرأة النادرة ، والاخلاص الفريد .

والامير يحبه لذلك ، ولما أدى له من خدمات ، ويأتمنه على القيام بكثير من مهماته السرية .

والفتى يتفانى في القيام بهذه المهمات .

ولم يكن يبدو انه فخور بنفسه وبثقة الامير به ، شأن غيره من الذين يضع الامير فيهم ثقته ، ويبدو بالعكس كئيباً أبداً كأن هناك سراً عميقاً يحزنه ويمنعه من التمتع بثمار جرأته واخلاصه .

والامير يلحظ ذلك ويرثي لحاله ... ورفاقه يلحظون ويتهامسون وينتهي الامر بهم الى احترام سر كآبته .

◇◇◇

ـــ تقدم يا فهد .

وكان فهد قد أقبل بطلعته النبيلة ووقف على الباب ، بعد أن أدى التحية الواجبة بحركة الجندي الذي لا يعرف سوى الواجب.

ولما تقدم قال له الامير :

ـــ لمن سيفك وساعدك ؟

فاجابه القائد الشاب بدهشة :

ـــ أيسألني مولاي ؟

ـــ يطيب لي أن اسألك وان تجاوب .

— لامير لبنان سيفي وساعدي ودمي .

— بارك الله فيك ... وامير لبنان لا يشك في اخلاصك ، ولهذا دعاك الان ، فهل انت مستعد لاعطائه برهاناً جديداً على هذا الاخلاص ؟

— حتى الموت .

— اريد ان ابعثك بمهمة لا سابق عهد لك بمثلها .

— أتحتاج الى غير ما اكسبني حتى الان ثقة مولاي ؟

— قد تحتاج اكثر من سواها الى التكتم .

— لقد تعودت الكتمان .

وكأن جوابه قد أيقظ في نفس الامير الرغبة في معرفة سر كآبته ، فهم بسؤاله عن هذا السر ... ثم عدل عن ذلك ، فقال :

— أنا اعرف انك تكتم سراً ... أتسألني الى اين اريد ان ابعثك؟

— كلا يا مولاي ... وقد تبعثني الى النار فاذهب . أللعبد ان يعترض على الموت ان كانت فيه طاعة مولاه ؟

فتقدم الامير منه وربت على كتفه راضياً ، وقال :

— ما أنت بعبد يا فهد . انت من احرار هذه الامة ، وسيكون لك شأنك فيها .

ثم التفت اليه قائلا :

— لقد دعوت الامراء والاعيان لمؤتمر يُعقد بعد ساعة ، وسنبحث في هذا المؤتمر شؤوناً هامة تتعلق بسياسة البلاد ، واريد

ان تكون حاضراً بحث هذه الشؤون ، فقم منذ الان على حراسة باب الديوان .

واشار اليه بالانصراف .

◇◇◇

الامراء والاعيان وفي جملتهم الامير منصور يلبون دعوة الامير... ولما اكتمل عقد المدعوين نزل الامير من مكتبه وتوجه نحو الديوان . وقبل ان يصل اليه سمع لغطاً على باب القصر وجدالا :

ـــ لا يستقبل الامير اليوم ايها الفتى .

ـــ ولكني اريد مقابلته لامر هام .

ـــ ممنوع .

ـــ ليس لاحد سواه ان يمنعني من ذلك .

وسمع الامير حركة كأن هناك من يحاول الدخول والحراس يمنعونه ، فنادى عبده مسعود قائلا :

ـــ مسعود ... اذهب وجئني بصاحب الحركة .

ولم يكن هذا سوى وفاء ، وقد تنكرت بلباس فتى عربي ، ولفت رأسها بكوفية بيضاء . فدنت من الامير ، وقد اسفرت عن وجهها ، وهمة بتقبيل يده ... والامير يعرفها ، ويعرف ما انطوت عليه من الحب والاخلاص له ، فابتسم لها قائلا :

ـــ هذا أنت ؟

ـــ وقدم لها يده ، ثم قال :

ـــ من أين انت آتية ، ولم هذا التنكر ؟

ـــ قالت وكأنها تعرف مقامها لديه :

ـــ أتيت هكذا محبة والدي ، ونزلت عند عمتي الاميرة لمياء ، على رجاء ان أتشرف بزيارة مولاي قياماً بواجب اخلاصي .

ـــ انت مخلصة . وكان يجب ان تنزلي هنا . أيسوء عمتك ان تفعلي ؟

ـــ ما يسوء عمتي شيء فيه رضى مولاي .

ـــ وأتيت الان لزيارتنا ؟

قالت وهي تتردد :

ـــ بل انيت اسأل مولاي أمراً ما كنت لولا طمعي بحلمه ، لاجرؤ على سؤاله .

ـــ وما هو ؟

ـــ هو ... ان يأذن لي بحضور المؤتمر الذي سيعقد هنا .

ـــ أنت ؟

ـــ ألست أميرة مخلصة لك يا مولاي ؟

ـــ ولك رأي تبديه في السياسة ؟

ـــ ان رأيي في سياسة مولاي لا يتغير .

فبرقت اسرته ارتياحاً وربت على كتفها قائلا :

ـــ بارك الله فيك ... لقد أذنت لك ، فعلمي الرجال كيف يكون الوفاء .

◇◇◇

في الديوان امراء ومشايخ واعيان ... هبوا للامير وقوفاً وعيونهم تنظر بفضول الى الفتى العربي الذي يتبعه ، الا الامير منصور الذي عرف ابنته ، تخفق قلبه على شيء من الدهشة و كثير من الاعجاب .

ولحظ الامير فضول الحاضرين ، فقال لوفاء :

ـ اسفري ... فليس من الغضاضة والعجب ان تشارك نساء لبنان الرجال في توجيه سياسة البلاد .

ونظر الى الامير منصور على دهشة سامعيه ، وقال له :

ـ ان لابنتك يا ابن العم رأياً في السياسة ... ولعل في رأيها ما ليس في آرائنا من حكمة ، لاننا نحن ارباب غايات ومآرب ، وأما هي فلا غاية لها مما ترتئي ولا مأرب .

و كانت وفاء قد مرت بالقائد الشاب الواقف على الباب بسيفه وخفق له قلبها ... وهي الى الان تنظر خلسة اليه ... فهذا هو ... فتاها بعينه ... فهل عرفها وخفق لها قلبه ؟

و كان على الامير ان يفتتح الجلسة ، قال :

ـ يا معشر الامراء والمشايخ والاعيان . الدعوة التي لبيتم انما هي للنظر في ما يجب ان يكون موقفنا من الحوادث التي تتمخض بها الايام .

وأدار بصره الحاد فيهم :

ـ ولكي تعرفوا ما هي هذه الحوادث فاني سأختصر لكم ما

أتوقع منها ببضع كلمات .

وسكت لحظة ، ثم قال :

ـ ان عزيز مصر سيغزو البلاد العربيـة من جانب ، وستلتقيه الدولة من جانب آخر في حرب لا هوادة فيها ، وسنبيت نحن بين حجري الرحى ان لم نفكر في امرنا اليوم ونقف غداً في جانب أحد الفريقين المتحاربين ، ففي جانب ايهما ترتأون الوقوف ؟

ووضعهم بذلك امام امر واقع :

ان الحرب لا بد منها ، وقد عودهم ان لا يجـادل في أمر لا بد منه ، والجواب ينحصر في أي من الفريقين المتحاربين يختارون ، فبماذا يجاوبونه ؟

ولم يكن لاحـدهم ان يختـار ، وهم الذين تعودوا ان يمشي وان يتبعوه حتى الموت ، دون ان يسألوه الى اين .

ولكن الموقف دقيق ... والحرب التي سيضطرون الى خوضها مهولة ، والوقوف في جانب أي من الفريقين يتطلب تضحيات جمة ، وقد تذهب هذه التضحيات أدراج الرياح ، فلم لا يجاوب هو عنهم ويكفيهم مؤونة الجواب ؟

ولحظ حيرتهم ، فقـال :

ـ أليس فيكم من يجاوب ؟

وقبل ان تتحرك شفتا احد منهم ارتفع صوت وفاء بجرأة زادت اعجاب الحاضرين بها ، قالت :

ـــ انا أجاوب عنهم إذا سمح مولاي .

فبرقت اسرته ارتياحاً ، وقال :

ـــ هاتي .

قالت بحرارة :

ـــ في جانب العزيز .

ـــ لماذا ؟

ـــ لان العزيز يغزو بلاد العرب لانقاذها من العبودية ، والدولة تلتقيه لتمنعه من ذلك ، والفرق واضح بين الاثنين .

ـــ واذا طاب للعزيز ان يستعبد هذه البلاد ؟

ـــ انه لن يفعل .

ـــ وما الذي يمنعه ؟

ـــ ما استعبد الاخ اخاه ليستعبد العربي العربي .

فكاد الامير يصفق ... لقد قال هذا منذ ساعة لشاعره . وتابعت الاميرة ومن عينيها ينبعث نور غريب :

ـــ ومصر عربية ... على الهرم ظل من مجدها القديم الخالد تفيأه ابن العاص بالامس ، ويتفيأه العزيز اليوم ، على ما يشاء العدل والخلق العربي ، ويجري الامن في فيء هذا كما جرى في فيء ذاك على مياه النيل .

فهتف الحاضرون للفصاحة تتدفق من فيها :

ـــ الله ...

ومضت هي في قولها :

ـــ ولبنان عربي ... اطل على الصحراء ابيض الوجه ، فمدت له يدها رفيقة ، ومد لها يده شقيقاً ، فاخضوضر الصخر على ملتقى اليدين ، وحنا الارز على الواحة يبث اليها بنسمة من نسيمه ، فتردها اليه دفقة من عميم خيراتها .

فكرر الحاضرون هتافهم :

ـــ الله ...

وهتفت هي اخيراً :

ـــ أتنسى مصر هذا ويناه لبنان ، وتنقطع صلة الدم لتقوم مقامها صلة المادة ، تلك التي لولاها لما كان في الناس اسياد وعبيد ؟

وارتفع صوتها بالهتاف :

ـــ لا ، والله ... ولن يكون العزيز من يقطع هذه الصلة ، وهو الذي بني لملكه لا على القوة يسندها السيف وحسب ، بل على الحكمة يسندها المنطق ايضاً .

فهتف بعضهم :

احسنت .

وهتف غيره :

ـــ في جانب العزيز نحارب .

ودبت الحماسة في صدر ابيها ، فهتف بدوره :

ـــ في جانب العزيز ... لعينيك يا امير لبنان .

وكتم الامير طربه ، وغمر وفاء بفيض من نور عينيه ، وقال بعد سكوت :

ـــ والخوارج ... انأمن شرهم ونحن نتهيأ للحرب ؟

فقال احد الامراء :

ـــ فقطع دابرهم .

وقال احد المشايخ :

ـــ نبيدهم ولا نتردد .

فقال الامير وقد اكتفى بما سمع :

ـــ باذن الله .

وانتصب واقفاً ، ووقف الحاضرون ، فتابع :

ـــ ان التردد في مثل هذا الزمن جبن ، وما نحن بجبناء حين تمتشق السيف احراراً لنغمده في رقاب العبيد .

ثم قال لهم وقد هموا بالانصراف :

ـــ تهيأوا ... وملتقانا في ساحة الشرف ، والموعد قريب .

واومأ للاميرة بالبقاء .

◆◇◆

قال وقد دنا منها ، وفي عينيه ما في عينيها من نور .

ـــ لقد كنت في نفسي وانت تتكلمين .

قالت ولهجتها لم تتغير .

ـــ لن يتم لنا النصر الا متى اصبحنا نتكلم وكلنا في نفس الامير .

— انت درة في تاج الامارة .

وسكت يتأملها لحظة ، ثم قال :

— اما تزورين الاميرة ... انها امك وعليك نحوها واجبات الابنة ، فافعلي الان وانا لاحق بك الى دار الحريم .

ولما انصرفت نظر الى فهد ، وكان لا يزال واقفاً في مكانه لا يتحرك ، وقال له :

— انتهت مهمتك هنا .

فخفض القائد الشاب سيفه ، وتابع الامير .

— وبقيت المهمة الثانية ... تقدم .

ولما تقدم منه قال :

— لقد سمعت الحديث ، ولك فيه رأيك ، فهات .

فقال القائد :

— انا جندي ، وليس لي غير هذا السيف في خدمة مولاي .

— اذن تمضي الى مصر .

— نعم .

وتقابل العزيز باسمي .

— نعم .

— وتعيد عليه ما سمعت . ان لبنان يحارب في جانبه ، وامير لبنان حليفه الى الحياة او الموت .

— نعم .

— وسأزودك برسالة ليس لاحد سواه ان يطلع عليها .

— نعم .

— تهيأ للرحيل .

◇◇◇

الى مصر ... انها لرحلة طويلة ومهمة خطرة ، وما قال فهد نعم ليتردد في القيام بها ، خدمة للامير وللوطن الذي يفديه بروحه .

ومصر جميلة ... وسيشاهد فيها الاهرام والنيل ... وسيرى ابا الهول ذلك الباسط على الصحراء جناحين من صمته وكآبته ، وكأن عالم الاموات الذي هو عالمه يغفو على هذين الصمت والكآبة الى ان يوقظه صوت نافخ في الصور ، فهل يكون العزيز ذلك الموقظ ؟

ان صورة الرجل الكبير تتمثل لعينيه .

فها هو ذا مصر ... يبعث فيها الحياة فيتدفق الخير في الحقول وينام الفلاح آمناً ، وترتدي المدن والقرى حلة العيد ، يسهر الجيش على حمايتها ، وتسهر العين التي ترعاها من وراء هذا الجيش على توفير اسباب الراحة لبنيها .

وسيرى الجيش ... ذلك الجيش الباسل في نظامه الجديد ، يتهيأ للحرب ليزحف غداً اليها على خفقان قلب العالم العربي ، هذا الذي يتمطى في قيوده وما ينتظر الا ان يتحطم قيد من هذه القيود ليثب ، وما اروع ما سوف تكون حينذاك وثبته واعظمها .

وتراءت له وفاء ... تلك التي ملأت بالامس قلبه ، وتملأ اليوم

قلبه وروحه معاً ، فما كان اجملها من قبل ، وما اجملها واعظمها الان .

◇◇◇

لم يكن منزل القائد الشاب بعيداً عن القصر ... ولم يكن له في هذا المنزل سوى خادم مسن هو وحده يعرف سر كآبته ، ويغمر هذه الكآبة بفيض من حنان كانه الحنان الابوي .

قال وقد رآه مبكراً بالعود خلافاً لعادته :

ـــ هل من جديد يا مولاي ؟

وكأن الكآبة الظاهرة باوضح اشكالها على وجه الفتى هي التي دعته الى طرح هذا السؤال ، وفهد يعرف حبه ووفاءه ، فقال له :

ـــ اني على اهبة سفر بعيد يا مرشد فهيء لي لوازمي .

وما تعود مرشد ان يسأله الى اين ... فحنى رأسه طاعة ، وراح يهيء له ما يحتاج اليه في سفره البعيد ذاك دون ان يسأله ايضاحاً .

ودار الفتى في المنزل كمن يبحث فيه عن شيء .

وتراءت له وفاء ثانية ... وكان قد سمعها تقول للامير ، حين كان يتحدث اليها في فناء القصر ، انها تنزل عند عمتها الاميرة لمياء ، وهو يعرف بيت هذه العمة ، فخرج دون ان يدري لماذا ، وراح يمشي الهوينا كأن قوة خفية تسيره على الطريق المؤدية اليه .

وفي منعطف من تلك الطريق جدول صغير تتشابك فوقه اشجار الجوز والحور ، فتوقف عنده ، وراح ينظر الى مياهه الرقراقة ذات الخرير اللطيف .

◇◇◇

وقع خطى خفق له قلب الفتى ... ووفاء كانت صاحبته ، فانتصب متأدباً وانحنى يحييها باحترام ، فابتسمت له وقلبها يخفق كقلبه ، وقالت :

ـ الى م كنت تنظر ايها الفارس ؟

قال وسؤالها يغريه بما لم يكن لولاه ليجرؤ على قوله :

ـ ما كنت انظر ... كنت اصغي الى ما تقول مياه هذا الجدول .

ـ أتقول هذه المياه شيئاً ؟

ـ نعم ، وان شئت رددت لك قولها .

ـ يطيب لي ان تفعل .

فنظر اليها نظرة كانها فيض من نور ، وراح يقول بلهجة المنشد الحزين :

« ايها الناظر الي ، أتلوى على ألم ، بعضه ألم الوحدة ، وفي دوائي كآبة ، هي بعض سري الدفين ، يبوح لك به خريري هذا الشجي .

« انا ايها الفتى ، نفحة من عطر ، وبسمة من فجر ، هبت الريح حيناً ، فبدد هبوبها النفحة ، ولبدت الافق بالغبار ، فحجب غبارها البسمة .

« وها أنذا في وحدتي ، انتظر الفجر والربيع ، والفجر لا يطلع ، والربيع لا يجيء ، فهلا اعدتهما الي ، وانا لك اكثر من صديق ؟

وهي تعلم ان الجدول لا يتكلم . وفهمت ما يعني بقوله ... فهمت بان تقول له شيئاً ، ولكنها عدلت عن ذلك ، وانفرجت شفتاها عن

ابتسامة كانها الجرح المنكوء ، وقالت :

ـــ لا شك في انك شاعر ، وكنت اود لو اني قادرة على استزادتك من امثال ما اسمعتني ، ولكن ... الى الملتقى ، وعسى ان يعود الى جدولك خمره وربيعه .

وتركته وراحت ...

◇◇◇

في صباح اليوم التالي مثل فهد بين يدي الامير ، وقال :

ـــ أنا على أتم الاهبة لخدمة مولاي .

فناوله الامير رسالة مختومة ، وقال :

ـــ هذه هي الرسالة التي عليك حملها الى العزيز .

ثم قال :

ـــ تسافر بحراً من صيدا ، وتعود متى أذن لك العزيز بالعود .

وصرفه بقوله :

ـــ على بركة الله .

محمد علي باشا

يقظة في مصر وفي بلاد العرب نهضة

مصر ، يا مصر ... يقظة مباركة . وعهد نهضة ميمون .

ووالياك الكبير ، مؤسس صرح ملكك الجديد ، محمد علي باشا ، يحمي يقظتك بسيفه ، ويقيم من عبقريته سياجا حول ذلك الملك الرفيع .

وحقٌ لك الملك ... وبلاد العرب باسرها تؤيد هذا الحق ولبنان يضع سيفه رهن الحوادث الجسام ، تلك التي يتمخض بها القدر والعاصفة على وشك ان تهب . حول مقدراتك ومقدراته .

◇◇◇

ان بين الحلم واليقظة لوثبة ، وليس لغير البطل ان يحلم ويثب . ومحمد علي باشا علم من اعلام البطولة ... رأى في الحلم دولة وملكا فوثب اليهما وثبة الاسد ، واذا هما في يديه ، لا ليوم وليلة ، بل لاجيال عديدة تعلو بالعرش رفيعاً ، ويتبوأ العرش اشبال من بنيه وأحفاده .

والسر في الاسس التي بني عليها ... فهو لم يبن على السيف وحسب ومابني على السيف يهدمه السيف ، بل على العلم يستعين باربابه لتوطيد أسس البنيان .

◇◇◇

لقد كان عهد الفرنسيين بقيادة الفاتح الكبير بونابرت ، في وادي

النيل ، عهد نهضة علمية لنشر ماانطوى من امجاد ذلك القطر ، وجاء عهد محمد علي باشا على اثر ذلك العهد .

فالنبوغ يبني على ما بنى النبوغ ، والعبقرية تكمل ما ابتدأت به العبقرية .

فهذه هي الانظمة الادارية والسياسية والاجتماعية ، والمالية تحل محل الفوضى في جهاز الدولة .

وهذه هي المعاهد العالية ، للعلوم الشرعية والطبية والهندسية والعسكرية تخلق في البلاد جواً جديداً وتحفزها للوثوب الى المكانة التي تصبو اليها .

وحلم الرجل الكبير يعدو حدود مصر ... فهناك عالم عربي الى جانب شقيقته الكبرى يحلم باسترجاع حريته ومجده ، ويحتاج الى من ينهض به للوصول الى غايته ، فلم لا يكون هو ابا لنهضته ؟

◇◇◇

— الجيش يا ابرهيم ... لا سياج للملك سواه .

وابرهيم ولده ، وقائد جيشه ، وموضع ثقته .

هما في القلعة ، في ديوان العزيز الخاص ، يدرسان معاً خطة الزحف على سورية ، ومنها على بلاد الترك حتى الاستانة .

والعزيز يحب الجيش ويريده منظما قويا ، وقد راقه نظام جيش القائد بونابرت فاراد ان يكون له جيش مثله .

وأحب مصر نفر من ضباط القائد الفرنسي الكبير ، وآثروا العيش فيها بعد ان نبذتهم بلادهم ، فأتوا ووضعوا سيوفهم في خدمة العزيز .

فرحب بهم كثيراً، وخص بالترحاب كبيرهم الكولونيل سلف... وكان هذا من القواد الموهوبين ،فأحبه لمواهبه وعلو خلقه، ومنحه الالقاب والرتب ،وعهد اليه بتدريب جيشه على أحدث الطرق العلمية.

واعتنق سلف القومية المصرية ودعي بسليمان باشا ، وكان له شأنه في الحروب التي خاضها الجيش المصري في ذلك الزمن ، وفي تاريخ نهضة مصر الحديثة .

وابرهيم كأبيه يحب الجيش ، قال :

— وجيش مصر سياج ملكك يا مولاي ... وسيحمي هذا الملك ، بعد أن يجعله من السعة ما شئت ، ويقيم لك في ساحته العرش الذي تشاء .

فنظر العزيز لآخر مرة في تقرير أمامه عن حالة الجيش المصري، وعن مبلغ تاهبه للقيام بالمهمة الخطرة التي اعدوه لها ، وقال :

— وسليمان باشا يرى من السهل اجتياز الصحراء ؟

— وأنا كذلك .

— فالعريش ، فغزه ، فيافا ... ؟ وعكاء ؟

— لن تصمد لنا طويلا .

— لقد صمدت للقائد بونابرت .

— لن يكون شأننا شأن ذلك القائد ، فنحن أولا أبناء البلاد وعبد الله باشا غير الجزار ، ولنا هناك حلفاء .

فقطب العزيز حاجبيه ، وقال :

— أيحفظ امير لبنان العهد ...لقد بعثت أخبره بعزمي ، واطلب منه البر بوعده ، فلم يكن جوابه لي جواب من يبرّ بالوعد .

فامتقع وجه ابرهيم ، فقال :

أعدل عن محالفتنا ؟

— لم يقل هذا ... ولكنه على قوله يمهد للأمر . فهناك من يجب ان يستشير ، وهناك من يجب أن يقنع ، ومتى تمّ له ذلك يجاوب ، وانا الان بانتظار الجواب .

— لعله خائف على امارته .

— لقد كتبت له مطمئناً الى مصير هذه الامارة .

وسكت لحظة ، ثم قال :

— ونحن بعد لن نمشي الى الفتح رغبة في الفتح وفي استعباد ما نفتح من البلدان ، بل تاييد لحق هذه البلدان بالحرية بعد ان سلبتها مطامع الغير حريتها :

فقال ابرهيم :

— ربما حسب تطمينك له من باب السياسة .

— لقد عرفني جيداً منذ اقامته الطويلة هنا وعرف قصدي ... فأنا ما احب الخداع في سياستي الرامية الى خير مصر ... وخير مصر لن يكون في استعبادها شقيقاتها العربيات ، بل في تحريرها هذه الشقيقات ان استطاعت من نير العبودية .

وهتف والاخلاص يشع في عينيه :

ـــ أخاك يا ابرهيم أخاك ... إن من لا اخ له لا جناح له .

وكان جالساً على تخته ، قرب نافذة فراح ينظر منها الى الخارج :

فهذه عاصمته القاهرة بقصورها وقبابها ومآذنها تحجب الا المجد والعظمة عن عينيه ، وتبدو وكأنها تضم في صدرها الخافق كصدره عالماً من الاحلام .

أيراود مخيلتها غير ما يراود مخيلته ؟

لقد وسعت هذه المدينة بالامس امجاد العالم ، ولم يكن لغيرها ان ينازعها الفخر ، فهلا تسع اليوم جزءاً من تلك الامجاد وتستعيد شيئاً من فخرها ؟

لمَ انت صامت يا ابا الهول ... تكلم ان كنت لا تهزأ باحلامه ... اما هو اهل لتحقيق هذه الاحلام ؟

وانت ايها الهرم ... ايها الجبار الراقد منذ آلاف السنين على الرمل ... ايكون بانيك الفرعون ، ذاك الذي اقامك حارساً لمجده ولم تعرف كيف تحافظ عليه ، قد ختم على فمك بالصمت فما تقوى على الجواب وقد جاء يسألك بدورك ؟

النيل وحده يجاوب ... والنيل مليك مصر الاكبر ، هذا المليك الكريم يضحك للشمس حين تشرق ، ويضحك لها حين تغيب ، وضحكته في الخالدين حياة .

ورأى العزيز ضحكته المحيية وضحك لها قلبه ، فقال :

— سنحرر العرب من نير عبوديتهم ... ومتى أصبحوا أحراراً سنمشي وإياهم جنباً الى جنب ، في سهل الحياة ووعرها ، الى ان نبلغ هدفنا جميعاً .

ورفع صوته كمن يريد ان يسمعه غير ولده :

— وليعلم العالم أجمع ما هو هذا الهدف ... اننا هنا بين الشرق والغرب صلة تعارف وتفاهم ، وحلقة اتصال نريدها قوية ولكن بأنفسنا ، ونريدها سخية ولكن بالحق ، وصديقنا من عرف هذا وساعدنا على جمع كلمتنا لنقوى على القيام بمهمتنا العالمية .

ثم وقف وقال لابرهيم :

— لقد كدت أنسى أن اليوم هو موعد زيارتي لمدرسة الطب فكن رفيقي اليها .

وخرج واياه .

◇◇◇

لقد كانت مدرسة الطب التي أنشأها العزيز ، في جملة ما أنشأ من دور العلم ، عاملا أولياً من عوامل نهضة مصر الحديثة ، ومد رواق هذه النهضة الى ما يجاورها من الاقطار .

فهناك ، بين جدران تلك المدرسة ، تعارف المصري واللبناني والسوري والحجازي والمغربي ، على ضوء ارفع مبدأ من مبادئ العلم ، وتعاهدوا على خدمة اوطانهم ، ومن ورائها خدمة الانسانية .

ولا يزال « القصر العيني » الى اليوم منارة في مصر . وكان في

ذلك العهد موضوع اهتمام الرجل الكبير وعنايته . فكان يتعهده ويسهر عليه ، ويزوره احيانا ، ويشرف على مدى تقدمه بنفسه .

ولم يكن احد من طلابه الكثيرين يجهل تلك الطلعة النبيلة ، طلعة عزيز البلاد ، تطل كالشمس عليهم لتثير غياهب اذهانهم كلما ساورتها الظلمة .

وكانوا يعرفون مواعيد زيارته لهم ، فكانوا يستعدون لملقاه وكأنهم في عيد ، استئناساً بما كان يقدم لهم من نصح ، وطمعاً بما كان يبذل لهم من هبات .

ولم يكن القائمون بادارة شؤون تلك المدرسة وأساتذتها اقل من طلابها حماسة . وكانوا يعرفون منزلتهم لديه ... فهو يحبهم ويقربهم ، وهم يحبونه ويحترمونه ويتفانون في القيام بواجبهم ، هذا الذي كان يريده فوق السياسة لانه كان في نظره أقدس الواجبات

◇◇◇

- العزيز ...

لقد أقبل العزيز في هالة من ضباطه وخدمه ، والى جانبه ولده ابرهيم هذا الذي لم يكن يقل عنه اهتماما للعلم والعلماء .

وطلاب المدرسة وأساتذتها بانتظاره ، وهيأة ادارتها على الباب تستقبله بكل ما يليق به من الاجلال .

وما كاد يترجل ويدخل البهو ، حيث كان الطلاب مجتمعين ، حتى علت اصوات هؤلاء بالهتاف :

— عاش عزيز مصر .

ورددوا الهتاف ثلاثا . وكان يبتسم لهم ... وسرى ابتسامه كالكهرباء في النفوس فتقدم أحدهم ، ونور الذكاء يشع من عينيه ، وأنشده البيتين التاليين :

عزيز البلاد بنيت لمصر بناء تطاول فوق الارب
كفى مصر فيك فخار ومجد فكن بعد مصر عزيز العرب

فصفق السامعون كثيراً . ولم يخف العزيز طربه ، فأشار الى الفتى بالاقتراب منه ، وقال له :

— ما أنت مصريا يا فتى .

فأجابه الفتى بجرأة وأدب :

انا عربي يا مولاي .

— من اي قطر ؟

— من لبنان .

— من لبنان ... وما اسمك ؟

— يوسف الوردي .

— وتعرف الامير بشير ؟

— انه ولي نعمتي ، وبفضله وفضلك أنا هنا .

— والى كم أنت هنا بعد ؟

— الى آخر السنة .

— وتعود بعدها الى بلادك ... أما يطيب لك البقاء في خدمتي ؟

ـ أنا حيث كنت في خدمة مولاي .

ـ أأكتب الى الامير بشأنك ؟

ـ قد يحتاج لبنان الي اكثر من مصر . وانا قد تعلمت في ظلك أن اكون لقومي اكثر مني لنفسي . اتريدني لغير ما تعلمت يا مولاي؟ ما أريدك الا لخدمة الانسانية ، فعد الى وطنك وقومك واحفظ لمصر ذكرى .

ـ سأحفظ لمصر ولمولاي اطيب الذكريات .

وقام العزيز بدورة في المدرسة تفقد فيها ما تعود ان يتفقد ، من قاعات التدريس والمختبرات ، ثم عاد يؤدي للطلاب بعض نصائحه الغالية ، قال :

ـ انا فخور بكم وبمدرستكم ، وليست هذه المدرسة لكم ولا لمصر . انها للعالم العربي الذي هو عالمكم . وهذا العالم بحاجة اليكم انتم رسل العلم والمباديء الطيبة . والعلم والمباديء الطيبة وحدها ترفع كيان الامم . لا يقل قائلكم : « انا لهذا البلد او لذاك ، اخدمه وحسب » ... انتم عرب ولبلاد العرب ، فاخدموها جميعاً حيثما كنتم وارفعوا كيانها عالياً بين البلدان .

فارتفع التصفيق والهتاف من جديد :

ـ عاش عزيز مصر .

وخرج من هناك والهتاف يتردد :

عاش العزيز .

◇◇◇

قصور القاهرة التاريخية فخمة وجميلة . وقصر العزيز في شبرا من أفخم هذه القصور ... وفي هـذا القصر يقضي العزيز معظم اوقات فراغه ، منصرفاً الى درس مشاريعه الهامة يستعين عليها بالاختصاصيين من رجاله ، ويناجي فيما بين ذلك احلامه .

وكم مرة جالس الامير بشيراً هنا ، ايام ان لجأ هذا اليه ، وحدثه عن بعض هذه الاحلام .

والامير بشير أدهى من عرف من الرجال ، ولن يكون له حليف مثله ... واللبنانيون رجال حرب وشدة ، وهو يعقد عليهم وعلى اميرهم ذاك اكبر الآمال ، ولكنه الان يتساءل ، ويطرح على مدبره حنا بك البحري ، هذا السؤال :

— لمَ يتردد الامير في البر بوعده ؟

وحنا بك البحري السوري الحمصي الاصل من أقرب المقربين اليه ، ويعرف ما لا يعرف سواه عن علاقاته بامير لبنان ، قال :

— سيكون الامير حليفك يا مولاي .

— كان يجب ان يصلني جوابه .

— لا شك في ان هناك ما يعيقه عن الجواب .

— لقد وعدته بالمحافظة على امارته حرة مستقلة . أتراه يشك في ذلك ؟

— ان داخل الشك فسواه يا مولاي ، وعليه ان يزيل كل شك من صدور رجاله .

— أيستشيرهم جميعا ؟

— إن اللبنانيين بأسرهم منغمسون في السياسة ، والكبير والصغير منهم يود ان يكون له رأيه في سياسة بلاده ، وموقف الامير حرج من هذه الناحية .

فقطب العزيز حاجبيه ، وقال :

— كنت أحسب ان رأيه وحده هو النافذ .

ورأى حنا بك ان الحمية قد ابتدأت تساوره ، فقال :

— ولكنه أدهى من عرف كيف يجمع حوله الآراء ، ولولا ذلك لما امتد عهد امارته الى اليوم ، ولما أصبحت له المكانة التي لم تكن لسواه بين قومه وجيرانه .

فقال العزيز كمن اقتنع بذلك :

— سأصبر اذن .

ودخل على الاثر كبير حجابه يقول :

— إن في الباب رسولا من لبنان يلتمس المثول بين يديكم .

فتهلل وجه العزيز ، فقال :

— أدخله .

فقال حنا بك وقد برقت اسرته :

— لا شك في انه يحمل الجواب الذي تنتظر .

◇◇◇

لم يكن الرسول غير فهد العرب نفسه ، وقد قطع البحر من

صيدا الى دمياط في بضعة ايام ، وقدم في دمياط نفسه لعامل المدينة فبعثه هذا الى القاهرة بعد ان عزف الغاية من قدومه .

وأعجبت فهد السهول التي مر بها ، وخيل اليه انه رأى هذه السهول الغنية في الحلم ، عندما كان يتهيأ للقيام برحلته .

ووقف امام القاهرة مشدوهاً ... لقد سمع الشيء الكثير عن جمال هذه المدينة وعظمتها ، ولكنه لم يكن يتصور انه سيجيء ويراها ويمتع العين بما هو اجل واعظم من وصف الواصفين لها .

ولم يعد العالم يسعه عندما أطل على قصر العزيز ، وفكر في أنه سيمثل بعد بضع دقائق بين يدي ذلك الرجل العظيم ... ففي أية هالة من هالات العظمة والمجد سيراه ؟

◇◇◇

دخل فهد ، ولثم ذيل رداء العزيز جاثياً ، دون ان يرفع بصره اليه . واعجبت العزيز طلعته ، وراقه ما رأى من فرط تأدبه ، فامره بالوقوف قائلا :

ـ قف ، وانت اكرم رسول . ما اسمك ؟

ـ فهد العرب يا مولاي .

فابتسم العزيز ، وقال :

ـ انك اهل للاسم . وما جئت تحمل الينا ؟

ـ رسالة من مولاي الامير .

ومد يده بالرسالة ، فتناولها العزيز بجلال ، وفضها بيده . وكان

وجهه مشرقا ... فسارقه فهد النظر ، واذا هو امام شيء من سر عبقريته وعظمته ... فالرزانة التي فض الرسالة بها ، والهدوء الذي كان يسوده وهو منصرف الى مطالعتها ، على ما في محتواها من الخطورة ، يدلان على ارادة حديدية بها لا بسواها يريد ذلك الرجل الفذ ان يحقق احلامه ورغائبه .

وكان رزيناً هادئاً عندما انتهى من مطالعة الرسالة ، وقال له :

ـــ وماذا يقول لنا بعد مولاك ؟

فاجابه فهد بلهجة الجندي الذي تعود السرعة في الجواب :

ـــ ان لبنان يقف في جانبكم ، وامير لبنان خليفكم ، الى الحياة او الموت .

فنظر العزيز اليه صامتاً ، ثم قال :

ـــ أأنت من ضباط الامير ؟

ـــ أنا من قواد فرسانه .

ـــ انت ضيفنا لايام تمضيها في القاهرة متنزهاً وتعود بعدها الى بلادك .

والفت الى مدبره ، وقال له :

ـــ حنا بك ... أكل اليك امره ، وليرافقه احد ضباط الحرس .

◇◇◇

صدق الامير ... وفي رسالته هذه ما يزيل كل شك في صدق نيته ، ولم يكن العزيز مخطئاً عندما وضع فيه ثقته وعلق ما علق من

الا مال على مخالفته . وها هو يستعيد مطالعة الرسالة ، ويتوقف امام ما يلي منها :

« ... ولبنان يأخذ يد شقيقته الكبرى ، ويمشي واياها في طريق المجد ، صعوداً الى القمة ، او هبوطاً الى العمق ، لا يستشير احداً ، ولا يؤدي حساباً ، الا لوجدانه وضميره وللتاريخ ان يحاسبه بعدها ، ان كان في عمله ما يستوجب المحاسبة ... »

وهذا لبنان ، بكل ما فيه من قوة ، من اعالي جباله ، الى اعماق أوديته ، الى شاطئه القديم المجيد ... وهذا اميره يسير في طليعة رجاله وكلهم سيف واحد ، على كثرة سيوفهم ، في طريق المجد ، فيا لهم من رجال ، ويا لها من طريق .

◇◇◇

لمصر ايام ... وفهد يتنقل من يوم الى يوم في ضيافة عزيزها وكأنه في عالم مسحور من دنيا الحكايات .

فها هو امام الاهرام ... ثم ها هو امام أبي الهول ... وضابط الحرس رفيقه يحدثه عن كل ما يرى بشيء من الاعجاب والفخر :

ـ هذه الاهرام من بناء ملوكنا الاقدمين . وهؤلاء الملوك كانوا جبابرة عصرهم . وكانت مصر في ايامهم سيدة العالم ... وهنا وقعت المعركة الكبرى بين المماليك والفرنسيين . واستولى الفرنسيون بعد هذه المعركة على مصر ، ثم زحفوا على بلادكم ، وارتدوا امام أسوار عكاء خائبين ... أتعرف انت عكاء ؟

ـ اعرفها .

ـ من بنى أسوارها ؟

ـ ملوك لم يكونوا يقلون عن ملوككم قوة وبأساً .

وكانا قد انتهيا الى ابي الهول ، فقال الضابط المصري :

ـ وهذا ابو الهول الاسد المرأة ... أعندكم مثله ؟

ـ كلا .

ـ ان هذا لا مثيل له في الدنيا ... اما المرأة التي يمثلها فمصر ، واما الاسد فالقوة الكامنة فيها ، وكم مرة وقف العزيز امامه متأملا ... كيف وجدت العزيز ؟

ـ فوق ما كنت اتصور .

ـ ان في خاطره لحلماً سيدهش تحقيقه العالم .

وسكت ... وفهد ينقل بصره من أبي الهول الى الاهرام ، والحجارة التي تتألف هذه الاجرام الهائلة منها تتكلم :

لقد كان هنا عالم غير عالمنا هذا ... ومصر ، بكل ما فيها من قوة ، تهب العواصف عليها ، العاصفه بعد الاخرى . وترتد عنها خائبة ، إن هي الا سر من أسرار ذلك العالم .

وأبو الهول امين هذا السر ... وصمته الرهيب ، صمته الهائل ، منذ اجيال عديدة ، يعني ان الوقت لم يحن بعد لافشاء سره ، فعبثاً يقف الناس امامه مفكرين .

ان الكلمة التي سينطق هذا الحجر المخيف بها ، والتي يحاول

اولئك الناس معرفتها ، ستخرج كالعاصفة ، في يوم لا يعرفه أحد ، ونهدم كل ما بنوا من صروح تفكيرهم لتبني على انقاضها الصرح الذي يحلمون .

واذ ذاك تبدو مصر للعالم بأجلى مظاهر قوتها .

والفتى اللبناني يشعر منذ الان بعظمة تلك القوة ، ولكن رفيقه المصري لا يفكر فيها ... فهو منصرف بكليته الى عكاء ، ويريد ان يعرف سر قوة أسوارها ، قال :

ـــ أحاربت انت تحت أسوار عكاء ؟

ـــ أرى انك في عمٍ لامر هذه الاسوار .

ـــ ذلك لاننا قد نزحف غداً عليها كالفرنسيين ، وما يطيب لي ان نرجع مثلهم بالخيبة .

ـــ لن ترجعوا مثلهم ، فكن مطمئناً .

ـــ أتحاربون انتم معنا ؟

ـــ ربما ...

وعادا الى المدينة . وعندما انتهيا الى روض الفرج ، قال فهد :

ـــ اود ان اقوم بنزهة ليلية في النيل .

فقال الضابط المصري مرتاحا الى ذلك :

ـــ سنقوم بها الليلة .

◇◇◇

عن لياليك يا مصر ، كم حدث الشعراء والعشاق والمغنون ...

ولياليك احلام ضاحكة زاهية ، تعبث بالعيش عبث مجنون ، وتلثم الزهر عن ضفاف نهر الحياة لتضفره أكاليل للاقمار والنجوم .

وفي كل سماء من سماوات الحالمين فيك قمر .

وعلى كل شفة من شفاه بنيك الضاحكين نجمة .

ونيلك العجيب ... نيلك الساحر ، مرقص الليالي ، حين تنام الشمس ، في صحرائك الهادئة ، وتستيقظ الارواح ، لتحدث النخيل ، عن زمان مضى ، وعن زمان يجيء ، الف حديث جديد .

◇◇◇

ـــ زورقك يا نوتي .

وفي روض الفرج مئات الزوارق لمئات النوتيين . ولهذه الزوارق في الليل منظر عجيب ... وأنوارها الضئيلة ذات الالوان المختلفة تتراقص على الماء ، وتجذب الناظرين على تباين شهواتهم الى تبريد لاعج هذه الشهوات ، بين احضان النسيم يتنفس في هينمة بليلة ينقلها الهدوء السائد على اليم عن حفيف النخيل .

ـــ وزورقك يا نوتي .

والزوارق تمتلىء على الضفة وتبتعد في اليم ... ونقر المجاذيف ، وخرير الماء المتساقط منها ، حين ترتفع عن الماء ، ألحان ... وهنا من يغني ، وهناك من ينقر على دف ، وهنالك من ينفخ في ناي .

أفي الجنة زاوية تفوق هذه الزاوية من الارض سحراً ؟

◇◇◇

ـــ اعندكم مثل هذا في لبنان ؟

والقائد اللبناني ، ورفيقه الضابط المصري ، في زورق صغير من الزوارق المتقدم ذكرها ، يتنزهان بين المتنزهين ، وهذا يدعوه الى السماع تارة والى النظر طوراً ، ويطيب له ان يفاخر بما في بلده مصر من روائع .

وفهد ينظر ويسمع ويتذكر ما في لبنان ... فهناك الجبال والاودية ، وهناك الارز وبعلبك ، وهناك غابات الستديان والصنوبر وهناك الثلوج الابدية .

وهناك ... هناك وفاء .

ومع ذلك فهو يصغي الى رفيقه مفاخراً ، ويجيب :

ـ إن ما عندنا في لبنان لشيء آخر .

وكانا قد توسطا النهر ، وزورقهما يتهادى ببطء ، عندما طرق الآذان صوت غناء بعيد ... ثم اخذ الصوت يدنو ... وكان مزيجاً من الرقة والخشونة ، فقال فهد :

ـ أي شيء هذا ؟

فامسكه الضابط من ذراعه ، وقال :

ـ اسمع ...

وكان الصوت قد ابتدأ ينجلي ، واذا هناك منشدون على انغام موسيقى غريبة ترق حيناً وتخشن ، وتتغلغل في الاذن كلاماً حفظ فهد منه هذا :

مصر يا مصر لك الروح فدا كتب النصر على السيف لك
انت في الشرق منار للهدى ولك الفخر ... فما اجلك

درة في تاج فرعون المجيد
طالما بالامس سيف العرب
واحتواها اليوم في تاج جديد من بحسن الرأي والعزم البعيد
عصره للملك عصر ذهبي
يا عزيز البلاد يا مليك العباد سر بنا للحياة والحياة جهاد

فقال فهد وقد هزه الغناء حماسة :

— من المنشدون هؤلاء ؟

وبلغ الفخر من رفيقه مبلغه ، فاجاب :

— هؤلاء طلاب مدرسة العزيز الحربية .

◇◇◇

جيش مصر ، تهيأ ... ان مصر تدعوك ، ووراء الحدود من ينتظرك ... والعزيز يستعرض جيشه :

فهذه فرق المشاة ، وهذه فرق الفرسان ، وهذه فرق المدفعية ، وهذه فرق الهندسة ، وهذه فرق الاسعاف ، وهذه فرق التموين .

وابنه ابرهيم قائد هذا الجيش العام ، ورئيس اركان الحرب سليمان باشا ، وفريق من كبار القواد والضباط ، ببزاتهم الحربية الجميلة ، يسيرون في ركابه من فرقة الى اخرى صامتين مفاخرين .

وفهد — وقد اراد العزيز ان يشهد العرض وأمره بان يسير في ركابه ايضاً اكراماً لمن هو رسوله وممثله — يعتلي صهوة جواد مطهم ويبدو على جواده كانه امير من الامراء لا فارس من الفرسان العاديين .

والناظرون اليه يعجبون به .

وهو معجب بما يرى من شكل ذلك الجيش النظامي ، ومن حسن مظهر قواده وضباطه ، ومن سرعة حركاته العسكرية ، ومن حداثة اسلحته ومعداته .

وكل اعجابه يعود في الاخر الى العزيز ... فهذا الرجل لا يشبه بقية الرجال الذين عرفهم حتى الان . ويحق لمن كان مثله ان يفكر تفكيره ويحلم حلمه .

وازداد اعجابه به عندما انتهى من استعراض الجيش ، وانتصب على صهوة جواده يخطب بصوته الجهوري الخطبة الوجيزة التالية :

« ايها القواد ، والضباط ، والجنود ... حياكم الله ، ومصر تحييكم ، أنتم سياجها ، وبناة مجدها ، في عهدها الجديد هذا.

« وانتم بعد على اهبة حرب ليس لكم ان تذكروا فيها سوى الله ، واخلاقكم العالية ، والمبادئ التي تعلمتم ، والتي من اجلها تحاربون .

« ان تحرير البلاد العربية الشقيقة هدفكم ، ومن يحرر لا يستعبد ، فحذار ان تركبوا هوى النفس ، حين يتم لكم النصر ، وان تجعلوا لمن حررتم سبيلا الى الشكوى منكم فاني والله لن اعاود في شكوى تأتيني ، حتى على اطولكم سيفاً .

« سيروا في طريقكم ... الى النصر ، او الموت ، لمجد مصر ، ولحياة مصر .

وأذن بعدها لرسول الامير بالعودة الى بلاده .

من وراء الستار

يد السياسة تفرق وسيف الامير يجمع

◄ ►

ـ الامير بشير يريد خراب البلاد .

والصوت صوت سلمان دوى في اذن الامير منصور ، وفي آذان العشرات من امثاله ، وما يزال يدوي الى الان .

واذا كان الامير منصور قد اصم اذنيه عن سماع هذا الصوت ، لان له ابنة كوفاء يعمل برأيها ، فان غيره من أفراد البلاد واعيانها لم يصموا آذانهم ، اذ ليس لاحد منهم ابنة كوفاء .

وهو ذا الرجل النافخ في بوق الفتنة يجوب البلاد من اقصاها الى اقصاها ، ويجمع حوله الناقمين والحساد والادعياء ... وفي البلاد من هؤلاء ما في سواها .

ودمشق تحت النار .

والاستانة تبعث بالوقود .

والامير بشير لا يجهل ما يجري ، وقد تعود هذا من قبل ، فعليه ان يخنق الفتنة في المهد ، وسيخنقها دفعة واحدة قبل ان تمتد مخالبها المجرمة ، تلك المخالب الملطخة أبداً بالدم ، الى نحور الابرياء .

◇◇◇

ـ لا رفق ولا هوادة ...

وقوات الامير تزحف في السهل والوعر وتطارد الخوارج :

ـ لا رفق ولا هوادة ... وكفى اولئك المتمردين غرور .
لقد وسعهم حلمي طويلا ولم يبق لهم عندي غير السيف .

والامير يقود قواته بنفسه ، شأنه كلما أراد ان يضرب ضربة قاضية ، ويردد على من حوله الكلمات التي قرأت ، ثم يتابع وعيناه تبعثان شرراً :

ـ ولست براجع عنهم حتى أبيدهم او أهلك .

والاشقياء يفرون من وجهه ، ولا يمكنونه من اللحاق بهم والاشتباك واياهم في معركة فاصلة ، كانهم يتعمدون ذلك لامر .

ومسرح الحوادث البقاع والجبل الشرقي ... وقد كان هذا الجبل والسهل الذي دونه ملجأ العصاة والمتمردين ، والستار الذي من ورائه تلعب دمشق ولا تتردد في الظهور عند الاقتضاء .

وكان الامير قد بلغ ضواحي راشيا عندما عاد رسوله من مصر ولحق به الى هناك ، وقال :

ـ ان جيش العزيز يزحف عبر الصحراء .

وسلمه رسالة يجدد العزيز فيها اعترافه باستقلال لبنان ، ويخبره بقيام جيشه من مصر بقيادة ولده ابرهيم باشا ، ويطلب منه الاسراع في الانضمام اليه . وقد جاء في هذه الرسالة :

« ... واللبنانيون ، منذ الان ، كالمصريين تماماً ، في الحقوق والواجبات ، وانت حاكمهم الفرد ، وليس لاحد ، حتى ولا لقائدي العام نفسه ، ان يتصرف بامر من امورهم ، دون مشورتك ورضاك » .

واقبل على الأثر رسول من عبدالله باشا والي عكاء ، برسالة يطلعه فيها على تمرد والي مصر ، ويأمره بالاسراع لنجدته نزولا على ارادة مولاه السلطان .

فردّ الرسول معتذراً بقوله :

ـ ان لي من مهام امارتي المختلفة ما يمنعني الان من تلبية دعوة مولاك .

وبات عليه ان يقوم بعمل حازم .

◇◇◇

ان الحوادث التي كان بانتظارها تقترب ... ومقدراته ومقدرات امارته وقف على ما سوف تسفر هذه الحوادث عنه ... وعلى هذا جمع كبار قواده وأعوانه وقال لهم :

لم يعد لي ان اكتم سراً ... لقد اعتزمتم الوقوف في جانب العزيز شعوراً منكم بحسن نيته ، وانتم تجهلون ما دار بيني وبينه من مفاوضات منذ كنت في مصر ، ويسرني ان تكون مفاوضاتنا قد اسفرت عن تفاهم تام ، فهو يعترف باستقلالنا ونحن نعاونه على محاربة الدولة ، ونكون حلفاء له في مقابلة هذا الاعتراف .

وأخرج من جيبه رسالة العزيز ، وقرأها لهم ... ثم اخرج رسالة عبدالله باشا ، وقال :

ـ وهذه رسالة من عبدالله باشا ... ويكفي ان اقرأ لكم

بعضها ، وان تقابلوا بينها وبين رسالة العزيز ، ليظهر لكم الفرق بين مقامنا من هذا ومقامنا من ذاك .

وقرأ لهم الفقرة التالية :

« ... لقد شق العزيز عصا الطاعة للدولة ، وجيشه يزحف نحونا ، وجلالة مولانا السلطان غاضب عليه والباب العالي يأمرنا بالصمود له ، وهناك جيوش لا تحصى قادمة لنجدتنا ، فعليك ان تبادر الي بقواتك ... » .

وكان الحاضرون يقابلون في نفوسهم بين لهجة العزيز الطيبة ولهجة الوالي التي لم تغيرها الايام ، عندما قال بلهجة حازمة :

ـ لقد آن لهذا الرجل ان يفهم اني ما اشتريت حربتي باربعين سنة جهاد ليظل السلطان مولاي ... وما أنا بعد مديوناً له أو لسواه بشيء .

ووضع يده على قبضة سيفه :

ـ ان هذا السيف وحده دائني وولي نعمتي .

فقال احد الامراء :

ـ كفانا خضوع لهذا وذاك من الولاة .

وقال آخر :

ـ ان بلادنا أشد حاجة الى الدم الذي نريقه في الميادين من سواها .

وقال احد المشائخ :

ـــ وليس احد يجهل كم بذلنا من دمنا في سبيل حريتنا .

فقال الامير :

ـــ ان الحرية غالية ... وما انتهى زمن البذل والتضحية . أفيكم من يحجم حتى عن التضحية بحياته في سبيلها ؟

فصاحوا بصوت واحد :

ـــ كلا .

قال وقد انبسطت أساريره :

ـــ اذن ها كم ما علينا الان ان نعمل ... ان العصاة الذين نطاردهم ويفرون كالثعالب سيكونون خنجراً يطعن في ظهورنا ، إن نحن لم نحطمهم قبل ان نمضي الى الحرب .

فقال بعضهم :

ولمَ لا نفعل ؟

قال بهدوء :

ـــ سنفعل ... وقد فكرت في خطة لذلك .

فاشرأبت الاعناق ، والامير خير من رسم الخطط لاقتناص الاعداء ، قال :

ـــ من منكم يتطوع لتنفيذ هذه الخطة ؟

وقبل ان يجاوبه احد وقد بوغتوا بسؤاله ارتفع صوت يقول :

ـــ أنا يا مولاي .

وعرف الامير صاحب الصوت ، فالتفت اليه مبتسما ، وقال :

ـ أنت يا فهد ... وقبل ان تعرف خطتي ؟

فاجابه القائد الشاب :

ـ ليس لي ان اعرفها يا مولاي ، لالبي صوت الواجب ، وحسبي رضاك .

ـ أنا راض عنك .

◇◇◇

عرف فهد خطة الامير . وعلى عادته في الطاعة جمع فرسانه الاشداء ، وكانوا نحواً من مئتي فارس ، وأطلعهم باختصار على المهمة المطلوب منهم القيام بها ، قال :

ـ سنقطع على العصاة طريق المرب .

وكان الظلام قد أرخى سدوله عندما اعتلى ورجاله صهوات جيادهم ، وراحوا يجتازون السهل الى جبل كان العصاة قد لجأوا اليه ... ودار حول الجبل ، واذا هناك واد ظليل يشقه مجرى ماء ، وفهد يعرفه جيداً ، ويعرف الاماكن المحيطة به ، فقال لفرسانه :

ـ ترجلوا .

وقسمهم قسمين ، الواحد منهما نصف الثاني عدداً ، وقال للاقلية :

ـ أبقوا انتم هنا للمحافظة على الخيل .

وقال للآخرين :

ـ وانتم اتبعوني .

ومشى يتقدمهم في طريق تؤدي الى الجبل ، وهم يحاذرون ان يرتفع لهم حس ، حتى انتهوا الى سلسلة صخور تشرف على سهل ، والسهل طويل ضيق ، قال :

— في آخر هذا السهل قرية ينزل فيها العصاة ، وليس لهم غير هذا السبيل يسلكونه في فرارهم ، فلنكمن لهم بين هذه الصخور .

ووزعهم على طريقة القائد المدرب ، وقال لهم :

— لن تتزحزحوا من هنا ولو تزحزح الجبل .

◇◇◇

لم يكن للامير سلمان ان يذوق طرفه الغمض ، وجيش الامير يطارده ، وقد وعده والي دمشق بالنجدة ولم يبر بوعده .

وكان قد اصبح في مأزق حرج ... فالسهل في قبضة عدوه ، ولم يبق في الجبل منفذ الا سده هذا العدو عليه ، وطريق الداخلية وحدها ما تزال مفتوحة في وجهه .

أيفر الى الداخلية ويخلص ؟

انه اذا فعل تركه رجاله ... هؤلاء الذين ما تجمعوا ، وشهروا السلاح على الامير بشير ، الا لانه وعدهم بنجدة الدولة لهم ... وهم الى الان بانتظار هذه النجدة ... وقد بعث اكثر من رسول الى علي باشا يخبره بحراجة موقفه ، وهذا يتهرب من انجاده بحجة ان الامير لم يتظاهر بعد بعدائه للاستانة ، وانه هو لا يمكنه ان يكون البادىء بعداوته .

◇◇◇

ـــ وبعد يا نصار ...

ونصار مدبره وكاتم أسراره ، والاثنان من طينة واحدة :

ـــ أأدعو الى الثورة ، واشهر السلاح باغرائه ، ويخذلني ؟

وكانا ساهرين بينما العصاة ينامون ، وقد نهكهم التعب ، في القرية الصغيرة التي اشار فهد اليها والمطلة على السهل ، حيث كان الامير .

وعدد العصاة يناهز الالف ... وسلمان قائدهم ، على انه الصلة بينهم وبين الاستانة ، تلك التي يبغون رضاها ، ورضاهـا انما هو في القضاء على الامير ، ولولا هذا لما رضي احد منهم بقيـادته ، فهو لا يفضل اي زعيم من زعمائهم بشيء .

وقد ابتدأوا الان يكرهونه ويتبرمون بالطاعة له ، لانهم لم يحسبوا لمثل هذه الخيبة التي مناهم بها حسابـاً ... فهل ركبوا من ثورتهم هذا المركب الخشن ليقضوا ايامهم في الحرب ؟

وسلمان يشعر بما يداخلهم ، ومدبره كذلك ، فقال هذا :

ـــ ان علي باشا رجل ضعيف ، وقد عرفت فكره ، وان لم يقله لي ، عندما بعثني في آخر مرة اليه .

ـــ وما هو فكره ؟

ـــ يريد بعث الفتنة في لبنان ، دون ان تكون له يد ظاهرة فيها ، لانه لم يتأكد بعد من كون الامير بشير سيخوض الحرب في جانب العزيز .

ـــ وما نفع هذه الفتنة ؟

— نفعها انها تضع الامير في موقف حرج لا يقوى معه على محاربة الدولة ، ان كان ثمة ما يغريه بمحاربتها .

— ونحن ... ما تكون فائدتنا ، اذا تهيب الامير الموقف ، ولم يحارب الدولة ؟

فابتسم المدبر الخبيث ، وقال :

— كالعادة ... يقرونه من جديد على امارته ، ويتركوننا لرحمة سيفه .

فلمع الحقد في عيني سلمان ، وزمجر قائلا :

— لن يكون هذا .

ثم قال ، وقد استعاد بعض روعه :

— وعلى كل ... لنفكر في الحاضر . ان موقفنا لا يطاق . فالامير يجد في طلبنا ، ولم يترك لنا باباً للنجاة ضمن حدود لبنان ، والفرار الى ما وراء هذه الحدود ، على ان الحيلة الاخيرة لنا ، يفرط عقد شملنا ، ولا يبقى لنا أي أمل بالتجمع .

ونصار يفهم ما يعني ، قال :

— صدقت ، وانا ألمس في جماعتنا روح التبرم .

فقال سلمان بحدة .

— يجب ان نزيل هذه الروح .

— كيف ؟

— سأبعثك الى دمشق لاخر مرة ، وتعود منها بجواب مرضي

مهما يكن جواب واليها لك .

ـ لا أفهم .

ـ لقد بت اود خوض معركة حاسمة ، ويجب ان لا نخوض هذه المعركة بالروح التي ذكرت ، فالقتال على أمل خير منه على يأس .

ـ فهمت ... وسآتيك بالجواب المرضي .

◇◇◇

ان من كان كسليمان يفكر كثيراً ، ويفكر في كل شيء ، قبل أن يأوي الى فراشه ، فكيف به والحالة التي رأينا حالته ؟

ان في رأسه المحموم لعالماً من الافكار :

فهو يستعرض صفحات ماضيه صفحة بعد صفحة ، فيتوقف أمام هذه ، ويطوي تلك بحركة عصبية ، ويحمل رأسه بيديه ليقيه من السقوط .

انه هو الآخر امير من ارفع فروع الدوحة نسباً ، وله من بعد الهمة والعزم ما ليس لسواه ، فلمَ لا تكون له كرسي الامارة ؟

لقد امتدت يده اليها ، وكادت تطالها يوماً ، واذا بيد الامير القاسية ، تلك التي لا تعرف الرفق ، تحول بينه وبينها ، ومنذ ذلك اليوم لم يذق طعم الراحة .

وفكر في حياته الخاصة ... فهذه الحياة نفسها تتخبط بين مخالب اليأس ... لقد احب في حياته مرة ، ومثله لا يحب بسهولة ، فكان

تصيبه الصد ، لا لانه دون التي أحب مقاماً ، بل لان هذه على رأي عدوه ، وتأبى ان تكون لمن ليس على رأيها .

ومن لا يحب بسهولة لا ينسى حبه بسهولة ... وسلمان لن ينسى لن ينسى وفاء وصدها ، وان تظاهر بالنسيان ... وكم ليلة ناجى خيالها وهو الان يناجي هذا الخيال ... انه وحده ينسيه همومه ، هذه الهموم المتراكمة كالجبال ، ويحبب له العيش ، ولو في عزلة عن الناس بعد ان أصابه ما اصابه ، من الخيبة واليأس ، في خوضه معترك العيش بين هؤلاء الناس ... وسوف لا يكتفي بالخيال يناجيه ، فهو قد رسم الخطة للحصول على صاحبته طوعاً أم كرهاً .

أترده خائباً ، ان كتب له النصر ، وراح يطلب يدها ، كالمرة الماضية ؟

وان اخفق ... أيصعب عليه اختطافها ؟

◇◇◇

دوي رصاص ... والفجر يطلع شيئاً فشيئاً ، وأصوات الخفراء تعلن في معسكر العصاة :

ـ الامير ... جيش الامير .

والجيش يتسلق الجبل ، وقد زحف اليه خلسة ، تحت جنح الليل . وكان سلمان قد أوى الى فراشه ، وأغمض جفنيه لماماً على متاعبه وهمومه ، فهب يرتدي ثيابه ويتقلد سلاحه . وتراكض من معه من الامراء والقواد مذعورين ، فقال لهم :

ـ ليشغل الحفراء المهاجمين ريثما نتهيأ للرحيل .

فقال احدهم متبرماً :

ـ أتقضي ايامنا بالهرب ؟

ـ لا بد من ذلك الى ان تجيئنا النجدة .

ـ ومن اين تجيء ؟

ـ من دمشق .

ـ ان صاحبك في دمشق لا يبدو مستعجلا ... ولم الانتظار . أنقوى على الحرب بدونه ؟

فاجابه قائل بلهجة المتهكم :

ـ وكيف لا ... اما ترونا نحارب والنصر يتلو النصر ؟

ـ لنسلم اذن .

فكظم سلمان غيظه ، وقال .

ـ صبراً ... سأبعث الى الرجل رسولا هو آخر من ابعث اليه ونرى ما يكون الجواب .

◇◇◇

ـ تهيأوا ...

قال فهد لرجاله ، وقد سمع دوي الرصاص ووقف يرقب السهل . وكان الدوي يشتد ... ان العصاة يحاولون منع الجيش من تسلق الجبل ولكن الى حين . وهو على يقين من انهم سيلجأون في الآخر الى الهرب . وسيجدونه هنا ... هو ورجاله الابطال ، هؤلاء الذين

امرهم بالصمود ، ولن يتزحزحوا من اماكنهم ولو تزحزح الجبل.

وخفق قلبه ارتياحا الى مهمته ، ومن كان مثله لا يرتاح الا الى الاعمال الكبيرة ، والعمل كبير ... هذا الذي سيصمد فيه بمن معه من الرجال ، لمثل ذلك العدد الاكبر من الاشقياء ، ويمكن سيف الامير من رقابهم .

وسيقدر الامير له هذا العمل ، وقد قدر له حتى الان الكثير من الاعمال ، فهل يبقى على كآبته ؟

ان هذه الكآبة لشيء من ماضيه ... وليس للحاضر ان يمحوها ما دام ذلك الماضي المليء بالالم ماثلا لعينيه .

وها هو يكاد يبدو ...

ولكن دوي المعركة وصورتها الرائعة ، حين تقترب منه ، وصورته ورجاله يخوضون غمارها ، تمحو كل شيء من مخيلته إلا ... هذا الطيف ... يتراءى له ، من خلال النار والدخان ، وعلى فمه ابتسامة .

انها لابتسامة رضى ... انها لابتسامة تشجيع .

وفاء ... لامير لبنان سيفه ، ولك قلبه ، فهو من اجلك يعيش على غمر من احلامه المتدافعة الى المجد ، ومن أجل امير لبنان .

◇◇◇

ـ النار ... واجعلوا منها سداً .

وتدفق رصاصهم يصد الهاربين ، ولم يكن هؤلاء يتوقعون

المفاجأة ، فدب الرعب في قلوبهم ، وتوقفوا ينظرون يميناً وشمالا ، لعل هناك مهرباً آخر ، واذ لا مهرب آخر هناك ، لا على اليمين ولا على الشمال .

ان على الجانبين منحدرات تنتهي الى السهل ، وفي السهل جيش الامير الزاخر ، ومن هم هؤلاء الذين يهاجمونهم ؟

لقد نصب الامير لهم فخاً ووقعوا في الفخ ... ولم يبق الا أن يشقوا لهم طريقاً في وسط النار المتهمرة عليهم من كل جانب ، أو يموتوا في اماكنهم إن هم أبوا الاستسلام .

ولم يكن ثمة ما يغريهم بالموت ... فالموت في ساحة القتال تحبيه عقيدة مشتركة ... ولكل من اولئك المحاربين ، تحت راية سلمان ، عقيدة تختلف عن عقيدة الاخر ، ولكل منهم غاية :

فهذا يكره الامير بشير لسوء ناله منه .

وذاك يحاربه لثأر له عليه .

وغيره يطمع بالجلوس في مكانه على أريكة الامارة .

وسواه يمشي مع التيار ولا يدري لماذا .

ولولا اعتماد الجميع على قوة الدولة تسندهم لما حركوا ساكناً ، ـ والامير ما هو قوة وبطشاً ـ ولآثروا الخضوع له على التمرد عليه .

والدولة لا يبدو انها مستعدة لانجادهم .

وها هم يحاربون منفردين ، وقوات الامير تحيط بهم ، وتجعلهم في نطاق من الحديد والنار يضيق شيئاً فشيئاً ، فعبثاً ينخيهم سلمان ،

وباطلا يحاولون خرق النطاق .

◇◇◇

— سيوفكم ...

وكانت أمواج الهاربين تتحطم على صخور فهد ورجاله ... وسمع فهد صوت الامير يدوي في طرف السهل ، ويخترق غمر الزوبعة داعياً الى امتشاق السيوف ، فردد الصيحة في رجاله :

— سيوفكم .

وذلك لان الجيش كان قد تساق الجبل ، وقذف بمؤخرة العصاة الى السهل ، فخاف الامير ان يصيب الرصاص فهداً ورجاله ، فامر بالكف عن اطلاقه ، وبضرب العصاة بالسيف .

ولم يخف على فهد قصده ففعل مثله .

وكانت الشمس قد ابتدأت تطل على السهل والجبل ، اطلال من تعودت النظر الى مثل ما يجري هناك ، عندما ابتدأ العصاة يستسلمون وأقبل قوادهم يرمون السيوف على قدمي الامير .

◇◇◇

— لا شلت يمينك يا فهد ...

وفهد واقف بسيفه ينظر الى الامير تارة ، والى أعدائه الاذلاء طوراً ، وكأنه يقول :

— كنت أود لو انكم لم تستسلموا لاحصد كم بحد هذا السيف .

والامير ينظر اليه ، ويقرأ ما يجول في خاطره ، ويكتم عاطفة

غريبة يكاد لا يقوى على كتمانها نحو هـذا الفتى الغريب ... هذا الجندي المجهول يتفانى في خدمتـه ، ويود ان يموت في سبيله ، فمن عساه يكون ؟

وهنأه في الآخر قائلا :

ـــ لا شلت يمينك ... وأنت منذ الان قائد حرسي الخاص .

فدمعت عينا الفتى ، ولم يجب ... وحول الامير بصره لئلا يرى دمعته ... وكان قد امر بجمع القتلى والجرحى من الفريقين ، واذا هناك من يجيئه قائلا :

ـــ مولاي ... ان بين الجرحى الامير منصور .

والامير منصور كان هناك . وقد اظهر في تلك المعركة بطولة نادرة ، كانما أراد بذلك التكفير عما مضى ، فقطب الامير حاجبيه ، وقال:

ـــ والامير سليمان ؟

ـــ لم نعثر له باثر .

ـــ لقد فر اذن ...

ومشى الى حيث كان الجريح .

◇◇◇

كان الامير منصور في غيبوبة من الألم ، ورجاله يحيطون به جزعين وكأن جرحه البليغ في صدر كل منهم ، عندما أقبل الامير ووقف ينظر اليه صامتاً حزيناً

وفتح الجريح فجأة عينيه كأن مرأى الامير قد اعاد اليه بعض الحياة ، فابتسم قائلا :

ـــ مولاي ...

وتمتمت شفتاه بما لم يقو على النطق به لسانه . وفهم الامير ما يريد ان يقول ، واحس بالحزن يغمره ، فأتى بحركة من يريد التغلب على حزنه ، وقال :

ـــ تشدد ... وستشفى باذن الله .

فهز الجريح رأسه كمن يقول : « لا » ... ثم رفع يده قليلا كمن يريد ان يتكلم ، ولم يشأ الامير منعه ، وقد عرف انه مائت ، لعل له من وصية ... وتكلم أخيراً ، والكلام يخرج من صدره وكأنه حشرجة الموت :

ـــ ابنتي ... لا تحزن ... أموت ... في سبيل ... الامير ... لبنان ...

ومات ... فمسح الامير عينيه ، وأدار وجهه قليلا لكيلا يرى أحد من الناظرين اليه ما ارتسم عليه في تلك اللحظة .

وذكر وفاء ... وكان لا بد من الوقوف هنا ، فقال لمن حوله :

ـــ احملوه الى ابنته .

ثم التفت الى فهد ، وكان واقفاً خلفه والحزن مستولٍ عليه ، وقال له :

ـــ ورافقه انت ، وضع على قبره باسمي اكليلا من الزهر .

◇◇◇

المزرعة الخضراء تلبس ثوب الحداد ... ووفاء تودع اباها

صامتة ، ثم تقف على القبر ، وفهد يضع اكليل الامير عليه ، وتقول لمن حولها بلهجة اثارت الدهشة والاعجاب :

ـــ إن من مات ليضع الامير على قبره اكليلا كهذا ليس بميت.

وركعت تصلي ... وفهد يرفع سيفه ، وكأنه يؤدي ، امام الموت والحياة ، تحيتين حارتين ، للموت والحياة .

بين بعلبك والارز

الجدول الحزين يجد فجره وربيعه

لبنان يتحرك ، وبيت الدين تجمعه ، حول من هو ربها ، سيوفاً لها صليل ... وتحت تلك السيوف ، من رجال هذا الجبل ، من اذا تصور لهم الموت ، والمجد من ورائه ، خفوا اليه سراعاً يختطفون المجد أو لا يرجعون .

والامير بشير يدعوهم الى الحرب . والحرب هذه غير ما شهدوا حتى الان ... انها لهم ، وليست لهذا أو لذاك من الذين تعودوا استخدامهم ، تنفيذاً لامر آمر ، او توطيداً لعرش غريب .

وعلى هذا هم يتجمعون ، ويملأون القصر وساحاته ، وبيت الدين تختال كالعروس في موكب احلامها ، على زغردة البارود وهزيج الهاتفين :

— لعينيك أبا سعدى .

— الى عكاء ... ندك أسوارها بالسيف .

— لبنان ... في سبيلك نحيا ، وفي سبيلك نموت .

◇◇◇

هو يوم ... والامير في قصره الرحب يستقبل الوفود . والوحدة التي نشدها ، وحارب من أجلها ، هنا ... انها ملء يديه ، وسيمشي بها الى النصر ، الى النصر الاخير .

وكان قد استقبل ، منذ ثلاثة ايام ، بعثة من لدن ابرهيم باشا برئاسة حنا بك البحري ، واستبقاها الى اليوم . فقال لحنا بك ، وقد أطل واياه على ساحة القصر ، وحيتهما الجماهير بالهتاف والتصفيق :

ـــ ما عرفت لبنان من قبل .

وعرف المدبر الداهية ما يعني ، فقال :

ـــ عرفت امير لبنان وكفى ... أيكون هذا الجبل غير ما أنت يا مولاي ؟

وكانت الجماهير تهزج وتصفق . ورفع الامير يده كمن يريد الكلام ، فساد الصمت والسكون واشرأبت الاعناق وأرهفت الآذان وارتفع صوته الجهوري يقول :

ـــ يا أبناء لبنان ...

وسكت لحظة كمن يريد ان يتأكد ان الكل يسمعونه :

ـــ انا لا استغرب حماستكم والحرب التي ستخوضونها ليست كباقي الحروب . ان في تاريخكم لصفحات كتب آباؤكم واجدادكم عليها ما انتم كاتبون . والنصر بيد الله ... وما كان الله الا في جانب الحق ونحن اصحاب الحق وحلفاؤنا اول من اعترف لنا به .

وهتف خاتماً :

ـــ عاش لبنان وعاشت مصر .

فرددت الجماهير هتافه .

ـ انت في مكاني يا امين .

والامير امين سر ابيه وقد تعود النيابة عنه في ادارة شؤون البلاد ، فما هو بحاجة الى اكثر من هذا ليقول :

ـ أنا في ظلك يا مولاي ، غائباً وحاضراً ، نصرك الله .

وانحنى على يده يقبلها ، والامير يهم بالخروج الى حيث كان جواده ، وقواده يحيطون به ، وقد تهيأوا جميعهم للمسير .

وما انتهى الى سلم القصر حتى ابصر حركة في آخر الساحة ، ورأى رجلا وفتاة يشقان طريقاً بين الجماهير وكأنهما يريدان الوصول اليه ، فتوقف في مكانه وقال لمن حوله من الحراس :

ـ أفسحوا لهما المجال . انهما ولا شك طالبا عدالة .

ولما انتهيا اليه خرّا على قدميه باكيين ، وقال الرجل :

ـ رحماك يا مولاي .

وقالت الفتاة :

ـ إننا قادمان من مزرعة الامير منصور .

فتجهم وجه الامير ، فقال :

ـ ولمَ تبكيان وتطلبان الرحمة ... أأصاب الاميرة سوء ؟

ووفاء اول من تبادر الى ذهنه ، فقال الرجل :

ـ لقد اختطفوها .

فتطاير الشرر من عينيه ، فقال :

ـ من ؟

فاجابت الفتاة وهي تشهق :

ـــ أشقياء ... وكانت تصلي على قبر ابيها ، وأنا في رفقتها ، عندما فاجأونا وذهبوا بها ، بعد ان كموا فمها وشدوا على فمي بكمامة أفقدتني الرشد .

فاطرق ومرجل الغيظ يغلي في صدره .

ثم رفع رأسه ونظر الى ما حواليه كمن يبحث عن احد ، واذا فهد امامه وكأنه ينتظر أمراً ... وكان الاخلاص ، وشيء آخر غير الاخلاص ، يشع من عينيه ... وعرف الامير شيئاً مما يجول في صدره ، فقال له :

ـــ ما انتدبتك يا فهد لمهمة إلا قمت بها .

وارتفع صوته بحزم :

ـــ أريد الاميرة ولو من السحاب .

فقال الفتى دون تردد :

ـــ سأجيء بها يا مولاي .

ومشى الى حيث كان رجاله ، فانتقى خمسة منهم ، وامرهم بالبقاء واياه . ثم عاد الى الرجل والفتاة ، وقال لهما :

ـــ لا تذهبا من هنا قبل ان أراكما .

ووقف في جملة المتخلفين من القواد والجند يؤدي التحية للذاهبين الى الحرب ، والامير في وسطهم ، وكأنه والعلم الخافق فوق الرؤوس سواء .

◇◇◇

عندما قال فهد : « سأجيء بالاميرة » لم يكن هو القائل بل العادة الغلابة فيه وقد تعود ان لا يجب مرة بلا . وهناك ما هو أهم من العادة جعله لا يتردد في الجواب . وسيجيء بالاميرة ... قال يسأل الفتاة بعد ان دعاها ووالدها اليه :

ـ لقد كنت رفيقة الاميرة عندما اختطفوها ؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ ومن أنت منها ؟

ـ رفيقتها ... وهذا أبي قيم املاكها .

ـ وما عرفت أحداً من الاشقياء ؟

ـ لقد كانوا جميعاً ملثمين .

ـ و لم كان عددهم ؟

ـ ستة ، او سبعة ، فرسان .

ـ أكانوا فرساناً ؟

ـ نعم .

ـ فاطرق لحظة ، ثم قال :

ـ أكان للاميرة طلاب ؟

فقال الرجل :

ـ كثيرون هم الذين طلبوها واعرضت عنهم .

ـ لماذا ؟

ـ لانها ... لم تكن ترغب في الزواج .

ـــ أتذكرهم ؟

ـــ أذكر في مقدمتهم الامير سلمان .

فانتفض فهد ، قائلا :

ـــ الامير سلمان علي ؟

ولم يدر لماذا انتفض لذكر هذا الرجل ، هذا الخائن الذي كان يكرهه ، ويراه اهلا لارتكاب كل صغارة . وكأن الفتاة تذكرت هنا شيئاً ، فقالت :

ـــ ما أستبعد ان يكون هو مختطفها .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأني ، وانا الان اتذكر ، لحظت جواده بين جياد المختطفين .

فقال فهد :

ـــ سأعيد الاميرة اليكما ، فعودوا الى المزرعة مطمئنين .

وقبل المساء ترك بيت الدين بفرسانه الخمسة قاصداً الى البقاع .

◇◇◇

لم يكن مختطف وفاء غير الامير سلمان ... فقد رأيناه يتخيلها ، ويريدها صوعاً أم كرهاً ، قبل المعركة التي خسرها . وجاء خسرانه المعركة على الشكل الذي وصفنا يزيده شراسة ، فقال لمن معه وقد فر واياهم الى بعلبك :

ـــ ان الاقدار تعاندني ، ولكني لن اطرح سيفي وساعاند الاقدار .

ـــ واستأجر له منزلا في ضواحي المدينة ، وقبع فيه اياماً يعالج ما انجرح من نفسه ، ويرسم للمستقبل خطته ، ثم قال لمدبره :

— أتعرف ابنة الامير منصور ؟
— وفاء ؟
— ما قلت لك اني طلبتها وردتني بالخيبة .
— هي ؟
— لاني لست على رأيها في الامير بشير .
— لتتزوج من هو على رأيها .
— لن تتزوج سواي .
— كيف ؟
— سأختطفها ...
وجاء بنفر من رجاله ، واختطفها من المزرعة ، كما قال .

◇◇◇

فتحت وفاء عينيها بعد غيبوبة طويلة لم تدر ماذا جرى لها في خلالها ، اذا هي في منزل غريب لا يشبه دارهم بشيء ، ورأت بالقرب منها امرأة لم تستأنس بها كثيراً ، فقالت لها :
— من أنت ... واين انا ؟
فانفرجت شفتا المرأة عن ابتسامة منكرة ، وقالت :
— انت هنا في منزلك ، وانا خالتك ام جهجاه .
وكانت وفاء قد ابتدأت تتذكر ... فتذكرت ما حدث لها ، وكان ما تذكرته رهيباً . فتراجعت الى الوراء على فراشها الخشن كمن تتحفز لحماية نفسها ، وقالت :
— انت ... بل انت امرأة شقية ، وانا في مغارة لصوص .

وهمت بالوقوف ، ولكن المرأة اقعدتها بشيء من العنف ، وقالت لها :

ـــ رويدك يا اميرة ، واذكري ان في الناس غيرك امراء .

ثم قالت بلهجة العاتبة :

ـــ أتغضبين مثل هذا الغضب علينا وانت لم تعرفينا بعد ؟

ـــ ما اريد ان اعرفكم .

ـــ لماذا ؟

ـــ يكفي انكم اختطفتموني من على قبر والدي ، على الشكل الذي فعلتم ، لتكونوا لصوصاً ... وماذا تريدون بعد مني ؟

ـــ ما يريده كل رجل يختطف فتاة .

فطار لب الاميرة شعاعاً ، وقد خيل اليها ان عرضها وشرفها في خطر ، فاستجمعت كل قواها ، ورفعت يدها بسرعة ، وكالت للمرأة صفعة قاسية ، وهي تقول :

ـــ خذي جزاء وقاحتك .

وطار لب المرأة بدورها ... ولكنها اكتفت بان صرفت باسنانها حنقاً ، وقالت :

ـــ كنت اود لو انك على حسابي .

وسكتت لحظة والاميرة تحدجها بنظرات كالجمر ، ثم قالت .

ـــ سأدعو الامير لعله يعرف كيف يخاطبك ويهديء من روعك وتركتها وخرجت .

◇◇◇

الامير ... من الامير هذا ؟

انه لنذل تتبرأ الامارة منه ، ان كان قول هذه المرأة صحيحاً .

واستولى على وفاء نوع من الذهول .

ثم تمتمت وكانها في حلم .

ـــ سلمان ... انك لنذل .

وكادت تبكي ... ثم تمالكت وقد غلى الدم في عروقها ، وقالت بعزم .

ـــ ليأت ...

◇◇◇

قال ، وقد دخل عليها غير مبال بما هي فيه .

ـــ أما زلت على كبريائك ، وعلى رأيك في الامير الكبير ؟

وكان متهكما ، فقالت .

ـــ ما زلت ... وكفى ان تكون من انت لتتأدب حين تذكر الامير بفمك .

ـــ وما انا في نظرك ؟

ـــ لص ، مختطف ، جبان .

ـــ أنا ...

وكاد يثب عليها ، ويبطش بها . الا انه تمالك ، وقال .

ـــ لا كن من شئت فانا ما ابالي بك ... وانت اسيرتي الى ان تنزلي عن عرش هذه الكبرياء .

ـــ وماذا تريد مني ؟

ـــ كنت اريد شيئاً ، اما الان ... فالارادة لك .

ـــ أريد الرجوع الى مزرعتي .

ـــ ما جئت بك لترجعي .

اذن ... اقتلني .

وتقدمت منه بحزم ، وفي عينيها بريق ، كمن تتحداه ... وكانت جميلة ، اجمل منها في اي وقت آخر ، فنظر اليها نظرة طويلة ، ثم قال متلطفاً .

ـــ وفاء ... انت اميرة ، وانا كذلك . لم صدك لي ؟

قالت ولهجتها لم تتغير .

ـــ ما اريدك .

ـــ واذا جاريتك في رأيك ؟

ـــ لن اكون لك .

ـــ وتكونين لسواي ؟

ـــ هذا شأني .

فسكت قليلا كمن يكبت شيئاً في صدره ، ثم قال :

ـــ أنا الان في شاغل عنك ، وسأعود اليك متى زال هذا الشاغل .

ـــ الافضل ان لا تنتظر .

فحدجها بنظرة استفهام حادة ، فتابعت :

ـــ لانك قد تأتي عملا يزيدني نفوراً منك .

ـــ وفاء ...

ـ أهناك غير مؤامرة جديدة تدبرها لاميرك ووطنك ؟

ـ وفاء ...

ـ ولكن الله يكلأ الامير ويرعى الوطن بعينه الساهرة ، ولن تفوز منه بطائل من وراء مؤامرتك .

ولم يعد قادراً على سماعها ، فصاح :

ـ سأفوز ... ولن اعود الا بنعي السفاح اليك .

وخرج في عاصفه من جنون حقده .

◇◇◇

ما استيقظت مصر لتنام الاستانة. ان نهضة العزيز تقض مضجع السلطان . وعندما زحف الجيش المصري بقيادة ابرهيم باشا على البلاد السورية ، زحف الجيش التركي لملاقاته بقيادة محمد باشا من الجهة الثانية .

وانتشر جواسيس هذا الاخير في طول البلاد وعرضها يعدون ويتوعدون .

وسلمان بدوره يدعو الناس الى الثورة .

ولكن المعركة الاخيرة التي ضرب الامير العصاة فيها تلك الضربة المهولة ، وجيش ابرهيم باشا الزاحف كالعاصفة يجتاح المعاقل وعين الامير امين الساهرة على الامن في غياب ابيه ... كل هذا كان يبعث القلق والذعر في قلوب الناس ، فيترددون في تلبية الدعوة

ومع ذلك فقد استطاع الخائن ان يجمع حوله عدداً لا يستهان به من الاشقياء ، واتخذ وايام مقراً في الجبال المجاورة لبعلبك بانتظار

اليوم المناسب لاعلان ثورته الجديدة .

◇◇◇

في مساء يوم أقبل على تلك الجبال ستة فرسان يرتدون الملابس البدوية ، وكبيرهم في المقدمة مدجج بكل أنواع السلاح ، فقال لاول من اعترضهم من الخفراء :

ـــ أهنا يقيم الامير سلمان ؟

ـــ أجل ، فمن أنتم ؟

ـــ أنصار .

وهمز جواده يريد التقدم ، ولكن الخفير اعترضه قائلا :

ـــ أما تنتظر ان يؤذن لك ؟

فقال البدوي بلهجة من لم يتعود مثل هذا الاعتراض :

ـــ عجب ... أنأتي لنضع سيوفنا في خدمتكم وتأبون ؟

ولوى عنان جواده قائلا لمن معه :

ـــ عودوا يارجال .

فأمسك الخفير بالعنان ، قائلا :

ـــ مهلا يا أخا العرب ... يطيب للامير ان يستقبل رجالا مثلكم .

وفسح لهم المجال .

◇◇◇

ـــ يأهلا بكم .

وكان الفرسان يملأون العين . فرحب الامير سليمان بهم ، ثم قال :

— من اين انتم ياوجوه الخير ؟

فأجابه كبيرهم بلهجته البدوية :

— من البادية .

— وما جاء بكم الينا ؟

— كره قديم للامير بشير .

— أنالكم بجور ... وكيف وصل جوره اليكم ؟

— كنا في هذه النواحي نقود قطعانا من الغنم للمتاجرة بها فاعتدى جنوده علينا وسلبونا غنمنا ومالنا بعد ان قتلوا عدداً منا ، ونحن العرب لاننام على ثأر .

— ياهلا بكم ... والثأر قريب .

ولم يكن الفرسان الستة غير فهد ورجاله ... وسليمان يعرف اخلاق البدو وطباعهم . وقد اعجبه قائدهم الشاب ، فقال له .

— أهؤلاء كل رجالك ؟

فابتسم البدوي قائلا .

— لو ان رجالي كلهم معي لملأوا هذه الجبال .

— وتجيء بهذا النفر منهم ؟

— سيلحق الباقون بي لدى اول اشارة .

فبات سليمان يتمنى رضاه .

ما أتى فهد وانضم لسليمان الا على أمل الاهتداء الى مقر الاميرة والى الآن لم يفز بطائل ... ومع ذلك فهو يراقب ، فما يمضي الامير في ناحية الا يبعث احد رجاله في أثره ، والامير يروح ويجيء وشؤون السياسة تلهيه عن شؤونه الخاصة ، فلا يفكر في اسيرته ويكتفي بما يحمل اليه من الاخبار عنها .

وعنّ له اخيرا ان يتفقدها ... ولحق به احد رجال فهد ، واذا به يعود ويقول للقائد :

ـــ لقد كان التوفيق حليفي .

فنظر القائد اليه مستفهما ، فتابع :

ـــ ان الاميرة هنا على ما يبدو .

ـــ اين ؟

ـــ في منزل شرقي المدينة .

وراح يخبره كيف عرف ذلك ، قال :

ـــ لحقت بالامير من بعيد ، فرأيته يدخل ذلك المنزل ، ورأيت هناك رجالا كانهم يقومون بمهمة ، فاحتلت على احدهم ، فعرفت ان ثمة فتاة ، وان الامير هائم بها .

ـــ وما قال لك من الفتاة ؟

ـــ قال انها غريبة وسكت ... وسأعيد الكرة عليه .

فقال فهد مستبشراً :

ـــ أريد ان ارى الرجل .

◇◇◇

في بعلبك خمارة يرتادها القليلون من ابناء المدينة ... دخلها فهد «البدوي» وطلب كأس خمر ، فخف صاحبها الى خدمته مرددا آيات الترحيب .

ـ ياهلا ... ياهلا .

واقبل بعد ذاك رجلان ، أحدهما رجل فهد ، والثاني رجل سلمان . ونظر البدوي الى البدوي ... وكأن صدفة جميلة جمعتهما هناك بعد فراق طويل ، فوثب كل منهما على الاخر ، وتعانقا بحرارة .

واعجبت رجل سلمان الصدفة ، فقال له رفيقه :

ـ أترى ... تفارقنا ، ونحن صديقان ، منذ عشر سنوات .

ثم تابع ببهجة :

ـ إن وجهك لوجه خير ، وسنشرب كثيراً نخب هذه الصدفة .

وشرب الثلاثة ، وعبّ رجل سلمان الخمر عباً ، فقال رفيقه كمن يفاخر به :

ـ إن رفيقي هذا يشرب دناً وما يبالي ..

فقال فهد معجباً :

ـ ماشاء الله .

ـ وهو رجل له مكانته عند مولاه .

ـ ومن مولاه .

ـ الامير سلمان علي .

ـ قائد جيش العصاة ؟

ـ قائد جيش الاحرار ، وسأنضم اليه .

ثم قال للرجل :

ـ أأبقى في رفقتك إن فعلت ؟

فرفع الرجل حاجبيه ، وقال :

ـ لا أعلم ...

وكانت ثورة الخمر قد أخذته ، وفعلت ثورة الفخر فعلها في نفسه المغرورة بالمديح ، فعطف قائلا :

ـ وأنت بعد لاتجهل مهمتي ... إنها قضية ثقة ، والامير لا يثق بالكثيرين ممن حوله .

فقال رجل فهد مقطباً :

ـ أكل هذا المحافظة على فتاة ؟

ـ على أميرة ... وفي وجود هذه الاميرة هنا سر هو الذي يريد كتمانه .

ـ أتعرفه انت ؟

ـ السر ...

وسكت ، فقال فهد لصاحبه :

ـ عجب أيبوح لك بسر كلف بالمحافظة عليه ؟

ورأى الرجل على ضوء الخمرة المشتعلة في رأسه أن رفيقه قد خجل واستاء ... وخيل اليه انه سيخسره ، ويخسر الاويقات العذاب

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY

التي يطمع بقضائها واياه ، فقال :

ـ ما يحتاج سري الى كل هذا التكتم ، وانتما بعد غريبان ، فما همني ان بحت لكما به ؟

وانحنى نحوهما ، وقال بصوت منخفض :

ـ ان الاميرة تلك ابنة عمه ، احبها ولم تحبه ، فاختطفها عنوة ، وجاء بها الى هنا .

فاكتفى فهد بما سمع ...

◇◇◇

لقد وجدها ... وقلبه يخفق ... وبقي عليه تدبير الخطة اللازمة لانقاذها . وها هو ، في طريقه الى الجبل ، يسير الهوينى ، ويدبر هذه الخطة .

◇◇◇

عندما قال سلمان لوفاء : « لن أعود إلا بنعي السفاح اليك ... » لم يقل ذلك فوراً دون سابق تفكير . فالخيبة التي مني بها في ساحة القتال جعلته يفكر في قهر عدوه خارج هذه الساحة .

فهو يريد اغتياله ، وقد دبر خطة الاغتيال :

ان الامير في عكاء يخوض غمار الحرب الى جانب حلفائه ، والرصاص يتساقط هناك في النهار والليل ويحصد المتحاربين ... ورجل واحد يبعثه ، ويطلق على السفاح رصاصة ، في غمر المعارك الضارية الناشبة هناك ، يكفي لبلوغ غايته .

فعليه ان يجد الرجل .

◇◇◇

قال يخطب في قواد عصاباته ، وقد جمعهم حوله ، وفهد بينهم :

« يارجال ما اجتمعنا هنا ، على الشظف الذي نحن فيه ، الا لان هناك ما هو امر من هذا الشظف يضطرنا الى الاجتماع .

« من منكم يذكر الامير بشيراً ، ولا يذكر الجور الذي أنزله بكل واحد منا كأفراد ، وما يزال ينزله بنا كجماعة لها ان تعيش حرة ، ويأبى الا ان يسوقها بالسوط ، في طريق الاستعباد ؟

« ولم يحارب اليوم ... ولم يرمي بالمئات والالوف منا في هوة الموت معرضاً بيوتنا واملاكنا وبلادنا للخراب ؟

« انه يريد سلبنا حريتنا وخيراتنا واعطاءها المصريين ... وقد ولدنا نحن احرارا ، وخيراتنا لنا ، فكيف يمكننا ان نعيش ، بدون هذه الحرية والخيرات ؟

« يارجال ... ان جيوش الدولة الجرارة تزحف

لتصرتنا ، وستضطر الى محاربة الطاغية وحلفاءه حيثما وجدت الى محاربتهم سبيلا ، وفي ذلك ما فيه من شقاء لنا ، وما دام الطاغية حياً ، لا مفر من هذا الشقاء .

فصاحوا وقد ثارت النخوة في رؤوسهم :

ـ ليمت ... ليمت .

فقال مرتاحاً الى نخوتهم :

ـ لن يميته الحماس والصياح ... ورصاصة واحدة ، من بندقية فدائي مجاهد ، تفعل احيانا ما لا يفعله احتشاد الالوف بعيداً عن ساحات القتال . والطاغية بعيد منا ، ولن يطاله رصاصنا من هنا ، ولا خلاص إلا بقتله ، فهل فيكم من يقوم بهذا الواجب ؟

فقال بعضهم :

ـ اختر منا من شئت .

ـ نقترع ولا نختار ، ومن وقعت القرعة عليه يذهب دون تردد .

واقترع ... وكان فهد ينظر اليه ، وقد سمع منه ما سمع ، وهو يتأكل غيظاً . وود لو ان القرعة تقع عليه . ولكنها وقعت على أحدهم ، وكان من أشدهم حماساً ، فقال :

أنا لها ... وسأقضي على الطاغية برصاصة واحدة .

فهنأه الحاضرون ... وتصاعد الدم الى رأس فهد ، إلا أنه فكر

في مهمته ، فقال في نفسه :

— إن للامير من يحميه ، وليس للاميرة سواي ، فعلي انقاذها أولاً .

ومتى انقذها أسرع في اللحاق بالمجرم ، وحال بينه وبين ارتكابه الجريمة ، إن كان ممن يجرؤون بالفعل على ارتكابها .

وقضى ليله يفكر ...

◇◇◇

طالت الايام والليالي على وفاء ... وحياة الاسر ، مهما قصرت ايامها ولياليها ، طويلة ... وكثيراً ما غضبت ، هي الاميرة الأنوف ، وكثيراً ما تمردت ، وأسمعت المرأة الموجلة بحراستها ما لا تطيق سماعه امرأة سواها .

وما عادت رأت سلمان ، فهو قد كان يكتفي بالمرور ، من حين الى آخر ، والسؤال عنها .

وكانت تفكر في ايامها الماضية ، وفي ما هناك من حوادث ، وفي الامير ... فماذا قال ، حين اناه نبأ اختطافها ؟

وخيل اليها انه امر بالبحث عنها ، وان رجاله ما يلبثون ان يعثروا بها ، ويبادروا الى انقاذها من اسرها ، فكاد وجهها يتهلل .

ولكنها عادت فرأت ان الامير منشغل عنها بسياسة البلاد ... وربما كان الآن يخوض غمار المعامع ... وتصورت هذه المعامع لها ... وتراءت لها ألوية النصر تخفق على رؤوس اللبنانيين وحلفائهم ،

فنسيت ما هي فيه وهتفت كمن تخاطب أحداً :

ـ الى النصر ... ان في انتصاركم لانتصار الحرية .

وكانت تستعيد تخيلاتها مرارا .

وفي مساء ذلك اليوم ، بينما هي تستعيد تلك التخيلات ، سمعت حركة في الخارج كانها حركة اقتتال ... ثم تعالت الحركة ، وتصاعدت من خلالها اصوات عقبتها قرقعة باب يتحطم ، ثم ولولة امرأة ، فهدوء ... فوقع خطوات .

خفق قلبها خفقاناً حلواً ، ووثبت الى الباب تريد فتحه ، ولكنه كان مقفلا من الخارج ، فجعلت تضربه بقبضتيها ضرباً شديداً ... وما فعلت حتى انفتح ، وظهر منه رجل ... واذا هو ، على نور مصباحها الضئيل ، بدوي جبار ، فتراجعت قائلة :

ـ من انت ؟

فاجابها بصوت خيل اليها أنها تعرف نبراته :

ـ لا تخافي يا أميرة . انا من رجال الامير بشير ، وقد اتيت لانقاذك ، فتنكري بهذه الملابس ، وهلمي بنا .

وناولها عباءة وكوفية تنكرت بهما في الحال .

ولما خرجت واياه وجدت سجانتها مطروحة على الارض ، والى جانبها بدوي أحكم تقييدها بعد ان سد فمها بكمامة خفيفة ، فطابت نفسها لهذا .

وفي الخارج رأت اربعة رجال آخرين ، بلباس البدو ايضاً ،

وامامهم خمس جثث ، بعضها يئن في الكمامات والقيود ، وبعضها لا يأتي بحركة .

ومضى بها الرجال الستة الى مكان فيه سبعة جياد مسرجة ، فقالت لهم :

ـ اود ان اعرف من انتم ، قبل ان امضي واياكم الى حيث لا اعلم .

فأجابها زعيمهم ، قائلا :

ـ انا فهد ، رئيس حرس الامير ، وهؤلاء من رجالي .

فكادت تثب اليه وتعانقه ... الا انها تمالكت ، واكتفت بالقول :

ـ شكراً ...

ووثبت الى ظهر الجواد الذي قدموه لها بخفة ، وقالت :

ـ الى أين الآن ؟

فقال فهد :

ـ ما نزال بحاجة الى الحذر ... أنت تمضين معي من طريق ، ويمضي رجالي من طريق ثانية .

فلم تسأله لماذا ... ومضت واياه في طريق القلعة ، بينما الرجال الخمسة يسيرون في طريق السهل مطلقين لجيادهم الأعنة .

◇◇◇

كان القمر بدراً ، وعلى السهل وشاح من نوره الفضي ، والقلعة

التاريخية العظيمة تنام على صمتها الابدي ، وكانها تحلم بماضي عزها ومجدها .

قال فهد ، وقد انتهى بالاميرة الى بستان كثيف الظل من بساتين المشمش المحيطة بها :

ـــ سنتوقف هنا ساعة .

قالت ، وكانها في حلم من وجودها الى جانبه :

ـــ لماذا ؟

ـــ لأننا ما نزال بحاجة الى الحذر كما قلت .

ـــ وهل يعود رجالك الينا ؟

ـــ كلا ، بل يتابعون طريقهم الى بيت الدين .

ـــ لمَ ؟

ـــ لأن الاشقياء يملأون السهل ، ومن يسر بينهم يتعرض لمتاعب كثيرة ، ولا طاقة لك أنت على تحمل هذه المتاعب ... وقد ينفضح امرنا من جهة ثانية ، ويبعث الامير سلمان رجاله لمطاردتنا ، فيخيل لهولاء ، حين يرون رجالي ، أننا نحن الهاربون ، ويخلو لنا الجو .

وكانت تنظر اليه متكلما ولاينظر اليها... ثم قالت مشيرة الى القلعة:

ـــ أهذه قلعة بعلبك الشهيرة ؟

ـــ أجل . أما تعرفينها ؟

ـــ كلا ، وهل فيها أحد ؟

ـ انها خالية الا من بقايا مجدها ومن اسرار عظمتها .

ـ أيمكن ان اراها ؟

وكان في قولها رجاء ... والوقت ليس وقت تفرج ، ومع ذلك فقد رأى ان لا يخيب رجاءها ، قال :

ـ اذا شئت .

وتركا جواديهما في البستان ، ودارا الى حيث باب القلعة ، ودخلاها .

◇◇◇

يالله العظمة ... ولمن كانت هذه القلعة ، من جبابرة العصور ؟

قالت ، وقد وقفت في أقبيتها تتأمل :

ـ أما كان بناة هذه القلعة بشراً مثلنا ؟

وتوقفت فوق ، امام الهيكل الكبير ، متأملة بما هناك من جلال ، وقالت :

ـ لقد كان لآلهة اولئك القوم ان تفاخر حقا .

ثم امام الاعمدة الستة :

ـ وهذه الاعمدة ... انها كما أخبرت عنها تماما .

فهيكل باخوس ، فهيكل فينوس ... والقائد الشاب يمشي وراءها صامتاً . ووقفت امام الهيكل الاخير الصغير ، وراحت تنظر اليه ، وكأن نظراتها خارجة من اعماق قلبها ، دون ان تدري سبباً لذلك . فتقدم فهد منها قليلا ، وقال لها :

— هذا هيكل الالهة الحب .

فكبتت في صدرها عاطفة عميقة ، وأغمضت عينيها ، كمن تريد ان ترى ، من وراء ظلمتهما ، طيف تلك الالاهة .

ولمَ لم يتكلم الفتى الا امام هذا الهيكل ؟

ولمَ خرجت كلمة « الحب » من فمه على مثل هذا الشكل من العذوبة ؟

وأصغت ... لعله يقول شيئاً بعد ... ورجعت الى الامس القريب ، وسمعته يردد لها قول الجدول بصوته الحزين الساحر ، والجدول لا يتكلم ... وسمعت نفسها تقول له : « ان هذا قول شعراء » ... فعرفت معنى صمته اولا ، ثم معنى صمته الاخير ، بعد ان خرجت تلك الكلمة من بين شفتيه ... لقد كانت بالامس قاسية جبانة ... أتتشجع اليوم وهو اعظم وأجمل منه بالامس ؟

قالت بعد تردد : لقد كان الحب مقدساً اذن ؟

قال ، وقد أحس بشيء يخرج من قلبها ويدخل في قلبه :

— وما يزال .

— ليس عند الجميع .

— عند من يعرف معناه .

— أتعرفه انت ؟

فتنهد ولم يجب ... وكان قد مضى اكثر من ساعة على وجودهما هناك ولم يبدُ اي خطر يهددهما ، فقال :

— لم يبق لنا ما نعمل هنا ، والطريق بعيدة امامنا ، فلنمضِ .

◇◇◇

الى الجبل ... والسهل ينطوي ، والجبل يكبر ، والثلوج تبدو على قمته .

وهما صامتان ، لا هي تجرؤ على الكلام ، ولا هو يتكلم .

تسارقه النظر وتتنهد في قلبها .

ويسارقها النظر ويتنهد في قلبه .

والقلبان يخفقان ... فهذا يرى السبيل وعراً اليها ، وذاك يرى السبيل غير سهل اليه ، ودون الواحد والآخر منهما عقبات .

ولكنهما الان في عالم غير الذي هما منه ... انهما في عالم الطبيعة ، حيث لا عادات ولا تقاليد ، والكبير والصغير أمام النسمة المارة والنفحة المتغلغلة الى النفس سواء .

فلمَ لاتكون هي البادئة بالحديث ؟

ولمَ لايكون هو البادىء به ؟

قال وهما يصعدان الجبل ، والليل ينطوي شيئاً فشيئاً :

ـ سنبلغ الارز بعد ساعتين .

ثم قال بعد لحظة :

ـ أتعبت ؟

قالت ، وكان غير طول الطريق ما يتعبها :

ـ من السير ، لا ...

ـ كنت انتظر ان تكوني البادئة بالحديث .

ـ طرحت عليك سؤالا فما جاوبتني عليه .

ـ اعدت عليك بالامس قول الجدول فقلت إنه قول شعراء .

وكانا قد انتهيا الى مكان ضيق من الطريق ، فتركها تسير امامه ، وانقطعا عن الكلام ، الى ان بلغا مكاناً متسعاً ، واصبحا قادرين على السير جنباً الى جنب ، فلحق بها ، قالت :

ـ لم ادر كيف اعيد الى جدولك فجره وربيعه .

ـ بكلمة .

ـ أتكفي ؟

ـ إن لم تكوني قادرة على أكثر منها .

ـ دعني افكر ...

وفكرت طويلا... وكانت في تفكيرها كمن تسير في ظلمة تبحث فيها عن شيء ولا تجده .

وابتدأ الفجر يطل ، وهما على قمة الجبل ، بين ثلوجه الازلية .

واخذا بالهبوط من هناك ، نحو الغابة المقدسة ، نحو الارز الخالد .

ونسيت وفاء تفكيرها ، امام ما هناك من المناظر الساحرة .

وما شاء فهد ان يسلخها عن نفسها .

واذا هما في الارز ... فوقفت تتأمل ، وكأنها في عالم مسحور من دنيا جديدة ، ووقف هو وراءها ، بعد ان ترجلا ، وكأنه ينتظر شيئاً بعد هذا التأمل .

وتذكرت اخيراً ... تذكرت أنه ينتظر كلمتها ، فنظرت اليه نظرة من بعثتها الحياة ، بعد ان ماتت عن هذا العالم ، بعثاً لاجين

معه ولا خوف ، وقالت :

ـــ أحبك ...

وارتمت بين ذراعيه .

وعاد الى الجدول الحزين فجره وربيعه .

امام اسوار عكاء

دم الشقيقين على حطام أول قيود العبودية

من مصر الى عكاء وثبة تنهار الحصون دونها ، وجيش ابرهيم باشا أمام اسوار تلك المدينة العاتية التي حطمت سيف بونابرت ، فهل يقوى ذلك الجيش على اقتحامها ؟

وهذا الامير بشير يأتي بجيشه الصغير وينضم اليه ، وابرهيم باشا يستقبله استقبال الحليف للحليف ... قال الفاتح المصري ، وقد التقاه مصافحاً ، وفرق الجيش تحييه باطلاق المدافع والهتاف :

ـــ باسم والدي العزيز أرحب بك واجدد لك العهد .

فرد الامير قائلا :

ـــ وانا على هذا العهد اشهر السيف لحياة لبنان وحياة مصر .

◇◇◇

لقد أبى والي عكاء الاستسلام ، وقد دعاه ابرهيم باشا اليه بشروط لامسّ فيها بكرامته ، فالفاتح في غضب من جراء ذلك ، قال :

ـــ لتهدم اسوار هذه المدينة .

وراحت مدفعيته تصب النيران عليها ، والجيش يعج حولها ، والدخان يعقد فوقها قباباً ، والرصاص لاينقطع ازيزه في النهار والليل .

وابرهيم باشا يتجول وحليفه اللبناني في صفوف الجيش ، يلهبان

الصدور حماساً ويظهران من ضروب الشجاعة ، وكلاهما من اربابها ، ما يستفز حتى الجبناء .

قال الامير يستنهض همم رجاله :

ـــ ما تعودتم ان تعودوا بالخيبة يا ابطال لبنان .

وتذكر الفاتح المصري اخفاق الفاتح الفرنسي امام المدينة العنيدة هذه بعد ان استخف بها ، فقطب حاجبيه وقال لقواده :

ـــ سأفتحها ولو فقدت نصف الجيش .

وقال لسليمان باشا رئيس اركان حربه ، وقد خرج واياه يشرفان على اعمال المدفعية :

ـــ أكانت مدفعيتكم بالامس كمدفعيتنا اليوم ؟

فأجاب القائد الفرنسي الاصل برزانة :

ـــ لقد ادخل على هذا السلاح منذ ذلك العهد تحسين كبير ، ومدفعيتنا اليوم من احدث ما في الدنيا من نوعها .

ـــ أتثبت هذه الاسوار طويلا امامها ؟

ـــ ان لم تسقط اليوم سقطت غدا .

ـــ ستسقط ...

◇◇◇

لئن كانت عكاء قد صمدت ، بفضل اسوارها وحصونها الجبارة ، فان غيرها من المدن ، على الساحل كان ام في الداخل ، لم تر بداً من التسليم .

والجيشان المصري واللبناني يتسلمانها ، وينشران الامن والنظام في طول البلاد وعرضها ، والناس مرتاحون مطمئنون الى عهدهم الجديد هذا ، الا من كان من أذناب العهد الذي مرَّ ، عهد العبودية المظلم ، ودعاة السوء يعملون لارجاعه بكل ما لديهم من حول .

ولكن عكاء ستسقط ، وستنهار صروح الرجعية ، ولا يبقى ثمة اذناب ، ولا دعاة سوء ، وللقدر ان يكتب في لوحته ما يشاء .

◇◇◇

دخل فهد على الامير ، وقد لحق به الى عكاء ، بعد ان اعاد الاميرة سالمة الى مزرعتها ، والتقاه الامير مرتاحاً الى عوده ، فقال :

ـــ لقد قمت بمهمتي يامولاي .

ـــ وأعدت الاميرة ؟

ـــ نعم .

ـــ واين لقيتها ؟

ـــ في بعلبك ، عند الامير سليمان .

فتجهم وجه الامير لذكر الخائن ، ثم قال :

ـــ أللخائن هناك عصابات تعيث بالامن . أيتدنى الى هذا ؟

ـــ والى ما هو ادنى يامولاي .

ففتح الامير عينيه الكبيرتين على علامة استفهام :

ـــ انه يتآمر على حياتك .

ـــ على حياتي ؟

وكاد الغضب يقيمه ، الا انه تمالك ، فقال :

ـ وكيف يفعل ؟

ـ لقد بعث من يقتالك الى هنا .

ـ الى هنا ...

وضحك ضحكة الاسد :

ـ أيكون من بعث اقوى من الجيوش التي حاربتها الى الآن؟

ثم قال لفهد :

ـ ومن قال لك هذا ؟

شهدت المؤامرة بنفسي .

ـ أنت ؟

ـ شهدتها متنكراً وانا أنشد الاميرة .

ـ ولِمَ خطف الشقي الاميرة .

ـ لانه طلبها ، وردته خائبا ، فغضب لحميته .

ـ وهي الآن في المزرعة ؟

ـ نعم .

ـ أما من خطر جديد عليها ؟

ـ انها في حماية مولاي الامير امين .

فسكت الامير ، ومعنى سكوته انه يدعو القائد الشاب الى الانصراف ، ولكن هذا لم ينصرف ، فقال له :

ـ ألك بعد ما تقول ؟

ـــ نعم ، ان يحذر مولاي الخطر .

ـــ اي خطر ؟

ـــ خطر التعرض لرصاص الشقي الذي ...

فقاطعه هادئاً :

ـــ الذي بعثه سلمان لاغتيالي ... ما خشيت رصاص الألوف لأخشى رصاص شقي مثله .

واتى باشارة فهم فهد منها انه لن يسمح له بالكلام بعد .

◇◇◇

سيسهر فهد عليه ... أما هو قائد حرسه ، والمسؤول الاول عنه ، في ايام السلم والحرب ؟

ولم يكن اصعب من هذه المهمة ... فالامير يقتحم الاخطار ، ويعرض بنفسه لها ، كآخر واحد من جنوده ، ويأبى ان يقبل نصيحة في هذا ، او ان يتظاهر احد بحمايته ، وكم مرة كاد يخسر حياته ، فكان يبتسم ، ويقول :

ـــ لم يبنه بعد عمري .

والاخطار تتوالى وعمره يطول .. . واذا كان مكتوباً له على لوحة القدر ان يخسر حياته هنا ، امام اسوار عكاء ، فانه سيخسر هذه الحياة ولو قام الجيش كله على حمايته .

◇◇◇

كان ابرهيم باشا يقيم في قصر هناك يدعى « قصر البهجة »

ـ من قصور والي عكاء ـ وقد جعل هذا القصر مقراً لقيادته .

وفيه كان يعقد الاجتماعات لبحث الشؤون الحربية ، ويستقبل من يأتيه من كبار الزائرين واصحاب المقامات .

وكان عبد الله باشا قد مل القتال ، وبعث يطلب الصلح بواسطة البعض من قواده . فاستقبل ابرهيم باشا هؤلاء القواد في القصر المذكور ، بحضور هيئة اركان حربه والامير بشير ، وقال لكبيرهم :

ما ذا يريد مولاك ؟

فأجابه القائد بلهجة المغلوب امام الغالب :

ـ الصلح والامان .

ـ ليفتح ابواب المدينة .

ـ وهو آمن ؟

ـ هو وعياله جميعاً .

وجنوده ؟

ـ نحن رجال حرب ، وهم ... ولأسرى الحرب حرمة نعاملهم بها .

◇◇◇

لكن عبد الله باشا لم يفتح الابواب ، وذلك لان رسولا جاءه من الاستانة قبل ان يفعل ، وشجعه على الصمود بقوله ان قوات هائلة ، من جنود البر والبحر ، قادمة لنجدته .

فغضب ابرهيم باشا لذلك ، وجمع كبار قواده ، وقال لهم :

ـــ لا صلح بعد الآن ... أتثبت هذه المدينة في وجهنا الى الابد ؟

وكان يريد جوابا ، فقال قائد الرماة :

ـــ ان رماتي على استعداد لاقتحام الاسوار .

ـــ هذا يكلفنا غالياً ، وعلى المدفعية ان تفتح لهم طريقاً . أتعجز مدفعيتنا عن ذلك ؟

فقال قائد المدفعية :

ـــ ان هذه الاسوار لعاتية .

فظهرت دلائل الغضب على وجه ابرهيم باشا ، فقال :

ـــ سأذل عتوها .

وبقي والامير بعد انصراف الجميع منفردين .

◇◇◇

قال ، وقد خرجا الى شرفة تطل على المدينة :

ـــ ما وفى عبد الله باشا ... أكان والدي ادانه لولاك ؟

وعرف الامير ما يعني ، فقال :

ـــ ولذا انا أفي .

ـــ لا دين بيننا ولا وفاء ... أنت غير عبد الله باشا . هذا عبد وانت حر . هو يعمل لنفسه وانت تعمل لبلادك ، وما يطلب منه لا يطلب منك .

وسكت لحظة ، ثم قال :

أكنت تقف في جانبنا لو ان مصلحة بلادك ، وانت تعمل لها ، دعتك الى الوقوف في جانب الاعداء ؟

ـ لا والله .

ـ ولم يكن لنا ان نطالبك بذلك .

وطاب له ان يحدثه عن ابيه العزيز ، قال :

ـ لقد عرفت والدي ، وحدثك شيئاً عن حلمه ، ولكنك لم تعرف المدى الذي يخلق هذا الحلم اليه. ان بلاد العرب قوة ، ولكنها قوة نائمة ، فهو يريد ايقاظها ، لتعود لها كلمتها المسموعة ، ومكانتها العالية ، بين الامم . والحلم دونه صعاب ... لان من تعود الكسل يكره العمل ، والعمل شرط اليقظة التي يريدها ، وحيث تكون الفوضى لا يستحب النظام ، والنظام سر النجاح في العمل الذي يسعى اليه .

وكان المساء قد اقبل عند ما خرج الامير من قصر القيادة ، راجعاً الى المعسكر ، حيث كان يقيم بين جنوده .

◇◇◆

لم يكن في رفقة الامير احد غيرفهد الذي كان لايفارقه ، والامير يعرف لماذا ، فيبتسم حين يراه ، ويقول :

ـ لن ترد الاجل متى حل .

وكان في انتظاره خارجاً ، حيث يقيم حرس القصر ، فابتسم حين رآه كعادته ، ومشى في طريقه ، دون ان يقول له شيئاً .

ولحق به القائد وكله عيون وآذان ... والطريق قصيرة ، في سهل فسيح ، والى جانبها بستان ليمون ، والى هذا البستان كان ينظر ، حين خيل اليه انه يلمح شبحاً ، بين اشجاره الغضة ... وكان الشبح يحمل بندقية ، ويتقدم كالصياد من شجرة الى شجرة ، فخفق قلب القائد بشدة ، وقبل ان يفكر في اي عمل يقوم به لاتقاء الخطر المداهم ، رأى الشقي يقف ، ويرفع البندقية الى كتفه ، ويصوبها الى الامير ، فصاح :

ـــ مولاي ...

ووثب كالنمر اليه . وكان المجرم قد أطلق النار ... فتوقف الامير مبغوتاً ، واذا بقائده الوفي يخر عند قدميه ، وقد اصابته الرصاصة بدلا منه .

وهال الامير ذلك واكبر الوفاء ... هذا الذي جعل الفتى يفديه بدمه ، ونسي انه أمير ، فأكب عليه لايدري كيف يسعفه ولا كيف يؤاسيه .

ولم يكن قد ابتعد عن القصر ، وسمع الحراس الذين هناك الطلق الناري ، ورأوا حيرة الامير وارتباكه ، فأسرع بعضهم اليه ، واول ما قال لهم :

ـــ إلي باقرب الاطباء .

◇◇◇

نقل القائد الجريح الى منزل في جوار المعسكر ، وكان الاطباء

في خوف على حياته ، فقال الامير :

ـــ أريد له الحياة .

ولم يبدُ مرة في جزع مثله اليوم عليه ، والاطباء يصدعون بامره ويتمنون رضاه ، ولكن ... ألهم ان يعيدوا الحياة الى ميت ؟

والفتى لم يمت ، ولكنه كان اقرب الى الموت منه الى الحياة ، فقال طبيب الامير :

ـــ لا بد من العجوبة لذلك .

وبعث ابرهيم باشا ، وقد عرف بالحادث ، طبيبه الخاص ، فكان رأي هذا كرأي زميله ، الامر الذي احزن الامير جداً ، فبات يعود الجريح كل يوم ، والجريح لايفتح عينيه ، ولا يبدُ انه يحس او يعي شيء .

◇◇◇

عمم النبأ البلاد :

ـــ لقد اعتدي على الامير ، ولولا قائد حرسه ، وقد تلقى رصاصة المعتدي ، لقضت هذه الرصاصة عليه .

وهز النبأ القلوب ، بعضها جزعاً ، وبعضها خيبة .

وغصت بيت الدين بوفود المهنئين ... واقبلت الرسل الى عكاء تحمل الى الامير عواطف الامراء والاعيان ، والامير يتقبل ذلك بحزن .

وجاء الى المعسكر ثلاثة فرسان ، وطلب احدهم مقابلته ، فأذن

له بذلك على انه من جملة المهنئين .

وكان الفارس شابا يرتدي اللباس العربي ويلف رأسه بكوفية .

◇◇◇

قال الامير بدهشة حين رآه :

ـــ وفاء ...

ولم يكن الفارس سواها ، فأكبت على يده تقبلها ، قال :

ـــ ما يجيء بك الى هنا ؟

فأجابته بلهجة حزينة :

ـــ وفائي يامولاي .

ـــ لمن ؟

ـــ لك ، ولمن انا مدينة له بالحياة .

ـــ لا أفهم .

ـــ أما أنقذ قائد حرسك حياتي ؟

ففهم ، واكبر الروح التي هي روحها ، قال :

ـــ وجئت تعودينه ؟

ـــ بل جئت ارجو ان اعيد الحياة اليه .

ـــ انت ؟

ـــ سأخدمه يامولاي ... سأسهر عليه ، فقد افيه بذلك بعض دينه ، وقد يستجيب الله أدعيتي فأفيه كل الدين .

ولم يكن رفيقاها غير قيم املاكها وابنته سلوى ، وقد أبت هذه

الا مرافقتها .

◇◇◇

أعجوبة ... لابد من أعجوبة لشفائه . ووفاء الى جانبه تصلي بحرارة وتسأل الاطباء :

ـ أما من أمل ؟

والاطباء يجاوبون :

ـ الامل بالله .

وتغتنم فرصة انفرادها به لتنحني فوق وجهه الشاحب ، وتبعث من عينيها شعاعاً هو شيء من ارادتها وروحها ، الى عينيه وفمه ... فكأنها تريد ارجاع النور الى تينك العينين المظلمتين ، والابتسام والنطق الى ذلك الفم الهامد .

وتململ اخيراً ، وفتح عينيه ... فخفق قلبها بشدة ، وقالت تخاطبه بصوت كأنه همس الحياة :

ـ فهد ... فهد ... أنا وفاء ... هنا ، الى جانبك .

وهتفت بحرارة :

ـ عد الي .

وخيل اليها انه يبتسم ... ولكن ومضة النور التي رافقت ابتسامته ماعتمت ان خبت ، وعادت الظلمة العاتية تخيم من جديد على فمه وعينيه ... فانحنت حتى كاد وجهها يلامس وجهه ، وكان قلبها يخفق على فمها ، وكانت روحها تنبعث من عينيها :

قهد ... قهد ... قلبي يناديك ... وأنت في قلبي جرح عميق.

وحملت رأسها بيديها هاتفة :

ـــ لماذا عرفتك ؟

◇◇◇

النهار والليل سواء .. هناك حيث المدينة الجبارة تأبى الاستسلام، والفاتح الجبار يأبى الرجوع عنها ، وشبح الموت يطوف بمنجله الحاصد في صفوف المحاربين .

والمدافع تدوي في النهار والليل .

والسنة النار تندلع من هنا وهناك .

وعلى ضوء هذه الالسنة تخرج وفاء احياناً لتلقي بنظرة الى الارض ، وترفع الى السماء نظرة ، وتخاطب الله :

ـــ السلام ، السلام يارب .

والسلام الذي تريده غير ذاك الذي يريده الاذلاء :

ـــ على ان ينتصر الحق، وتحيا بلادي، ويشفى كل قلب جريح.

لعل قلبها يشفى ... ولن يشفى هذا القلب إلا بشفاء فتاها ، وليس لها ان تفكر فيما قد يكون بعد هذا الشفاء . قالت تخاطب سلوى ، وهي وإياها في الخارج :

ـــ ليشفَ ... وليكتب لنا الفراق . القرب والبعد كلا شيء. أإذا افترقنا بالجسد تستطيع قوة ان تفرقنا بالروح ؟

◇◇◇

الاعجوبة ... أهذه هي الاعجوبة التي لابد منها ؟

إن على شفتيه لرجفة تحاول ان تكون كلمة ولا تستطيع ...

فماذا يريد ان يقول ؟

وها هو يفتح عينيه ، لا كالمرة الماضية على قوة تتلاشى ، بل على قوة جديدة هي شيء من قلب وفاء الخافق ، فقالت تناديه :

ـــ فهد ...

وابتسم هذه المرة ابتسامة حقيقية ... ولعله لم يعرفها ، ولم تكن ابتسامته لها ، ومع ذلك فقد ابتسم :

ـــ ابتسم ... تكلم .

وابتسم الاطباء بدورهم حين عرفوا ذلك ، واصغوا الى القلب ، فقالوا :

ـــ ستتم الاعجوبة .

وابتسم الامير كذلك ... فالفتى الذي كان يفارق الحياة يعود الى الحياة ، والفضل للاميرة .

◇◇◇

ـــ ما ذا يقول ؟

انه يتكلم ، يقول شيئاً ، شيئاً غريباً ... ووفاء تصغي ولا تفهم ، وقلبها يهتز لا على طرب ، ولا على خوف ، بل على ريب :

ـــ أجن ؟

وبعثت من يدعو الامير في الحال . قالت ، وقد أقبل :

ـ مولاي ... إنه يتكلم ، يقول شيئاً غريباً .

وكان فهد يهزي :

ـ الامير سعد الدين ... ابنه ... لا ... لا أريد .

وسكت وشفتاه تتمتمان ، ثم عاد الى الهزيان :

ـ فهد ... نعم ... وفاء .

ولم يفهم الامير كثيراً ، فقال :

ـ أقال غير هذا ؟

ـ كلمات غريبة : ماجد ، خيانة ، موت ، حياة ، الامير ، لبنان .

فأطرق الامير كمن يحل لغزاً :

ان في صدر هذا الفتى لسراً ، وسره كان سبب كآبته ، فما معنى ما يقول الآن ؟

الامير سعد الدين ... لقد كان هناك أمير بهذا الاسم ، وكان من اعداء العنيدين ، وقتل في احدى المعارك ، وترك ابنا اسمه ماجد لم يبن له أثر بعده .

أيكون هذا الفتى هو ؟

قال ، والاهتمام باد عليه :

ـ لا تتركيه بعد ، واحفظي كل ما يقول ، واطلعيني عليه .

◇◇◇

ـ لا بد من رؤية الامير .

ولم تنتظر ان يجيء فراحت هي اليه ، وقالت :

ـــ لقد قال اشياء جديدة .

وكانت تبدو متهللة ، فقال :

ـــ ماذا ؟

ـــ ان الامير سعد الدين ابوه . من كان هذا الامير ؟

ـــ كان من انسبائنا .

ـــ وانه ولده ماجد . أكان لنسيبنا ولد بهذا الاسم ؟

ـــ أجل .

ـــ وان اباه ارتكب خيانة . أية خيانة ؟

ـــ كان من اعدائي وقتل بينهم .

ـــ وانه تنكر ، وتطوع لخدمتك حتى الموت .

ـــ أقال كل هذا ؟

ـــ نعم ، بعبارات متقطعة كان يقولها كمن يخاطب أباه بلهجة الغاضب لشرفه ، وتمنى الموت لنفسه ، على أن موته شريفاً خير من حياته في العار ، وأبى الا ان يموت في طاعتك جندياً حقيراً مجهولا ، لعله بذلك يكفر عن خيانة ابيه .

ـــ لقد كفر عن هذه الخيانة .

وتهلل وجهه كوجهها ... ان الدم الذي سال في سبيله دم امير . وهذا الاخلاص ، هذا الوفاء ، هو بحاجة اليه ، بعد ان خانه الكثيرون من اهله ، وقال الناس : « حتى اهله يخونونه » فما عسى ان يقولوا

الآن ، بعد ان يعرفوا قصة هذا الامير ؟

انها لمعركة يربحها من معاركه المعنوية .

والامير ماجد ، هذا الجندي المتنكر والفتى الذي ادهشت بطولته الابطال ، هو الذي يعود الفضل اليه في ربح هذه المعركة .

ووفاء ... قال ، وهو ينظر الى ما وراء وجهها المتهالل :

ـــ أسرك عود الحياة اليه ؟

ـــ أما سر ذلك مولاي ؟

ـــ ما هذا ما اقرأ على وجهك . أما تخفين شيئاً عني ؟ ولم تخفي عنه بعد ؟

ان الفتى من اهلها ، وله المنزلة التي ليست لسواه ، قالت :

ـــ ما كنت لاُخفي عن مولاي سراً . ان لماجد في قلبي حباً يقيم منذ كان فهداً . وكنت قد آليت ان أكتم هذا الحب حتى الموت . أأكتمه بعد الآن ؟

ـــ الى حين .

وعرفت مايعني ، قالت :

ـــ الى مايشاء مولاي .

◇◇◇

وعادت العافية شيئاً فشيئاً اليه ، ووجود وفاء في قربه أنساه كل ما كان ... قال والحب يفيض من عينيه :

ـــ أنا مدين لك بحياتي .

قالت والبشر يطفح على وجهها :

ـــ لقد كان لك عليّ دين وفيتك اياه .

فسكت قليلا ، ثم قال :

ـــ سأعود الى بيت الدين انتجاعاً للراحة ، ونزولا على ارادة الامير .

ـــ وسأعود انا الى المزرعة .

ـــ ليس بين المزرعة وبيت الدين بعد . أنلتقي ؟

ـــ قد نلتقي .

ولم يرقه جوابها . وخيل اليه انها تتردد في المضي بحبه ، قال :

ـــ قد ... صدقت ليس لي ان اطمع بالكثير ، الا اذا شئت الهبوط الي ، وليس من السهل ان تفعلي .

ـــ اصعد انت الي .

وكانت تريد حمله على البوح بسره . وكاد يبوح لها بهذا السر ولكنه تردد ... ثم اعتزم ان لايفعل ، وهو الذي اقسم ان يخدم الامير جنديا خامل الذكر حتى الموت ، قال :

ـــ ليت لي ان افعل .

وغمرت نفسه موجة حزن ، وظل وجهها يتهلل ، لان سره لم يبق سراً ، ولم يبق ثمة ما يمنعها من التعلل بحبه .

◇◇◇

لم يبق غير عكاء صامدة ، من حدود مصر الى بر الاناضول ،

والحصار عليها يشتد من يوم الى يوم .

وابرهيم باشا والامير يروحان عنها ويجيئان ، فهناك مهام عديدة تدعوهما الى الرواح ، وهم واحد يدعوهما الى المجيء هو هم افتتاحها.

وتعب واليها اخيرا ، ولم يبق لجنوده صبر على الحرب ، ففتح الابواب بعد ان امنه الفاتح على نفسه وعلى ذويه .

وكان يوم سقوط تلك المدينة يوم عيد .

فهنأ الامير الفاتح قائلا :

ـــ ان عيد النصر هذا عيدنا جميعاً ، ولبنان مبتهج كمصر ، فأنا أدعوكم الى الاحتفال به رسمياً في بيت الدين .

◇◇◇

عيد النصر ... والعيد لم تشهد له البلاد مثيلا . والامير يدعو الامراء والاعيان لحضوره . والوفود تأتي من كل مكان ، حتى غصت العاصمة وما يجاورها من القرى الكبيرة والصغيرة بها .

وابرهيم باشا وكبار قواده وضباطه هناك .

وفرق من الجيشين ، اللبناني والمصري ، ترابط في ساحة القصر ، وفي غيرها من الاماكن الصالحة لنزولها .

وفهد ببزته العسكرية الجميلة ، وقد ملك تمام العافية ، يروح ويجيء ، في باحات القصر الفسيحة ، والعيون كلها متجهة اليه :

ـــ هذا بطل حادثة عكاء .

ـــ هذا منقذ الامير .

والامير يخصه بعطفه ، وقد أمره بأن يكون ، في ذلك اليوم الى جانبه :

ـــ لا تفارقني ، يافهد .

ووفاء ... لقد دعاها الامير أيضاً ، وكانت تلبث الحداد ، فقال لها :

ـــ العيد عيد النصر ، ولا حزن بعده ، فاخلعي هذا الثوب . نخفق قلبها على فرح لم تدر له سبباً .

◇◇◇

هنأ المهنئون ، وتبارى الخطباء والشعراء ، نثراً ونظماً :

« لبنان ، ومصر ... أللعين ان تشهد أجمل منهما حليفين ، والعيد عيدهما اليوم ، بعد ان سال دمهما معاً ، على حطام أول قيد ، من قيود العبودية ، والنصر يضفر لهما اكليلين ، يضع لبنان احدهما على رأس اميره ، وتضع مصر الثاني على رأس عزيزها ؟

« يا للبنان حين نادته مصر »

جرد السيف للاخوة غضبا

ليس لبنان غير مصر وليست

مصر إلا لبنان سلماً وحربا

أو يصفو الزمان إلا لشعب

وحدته الايام روحاً وقلباً ؟

« أيها الفاتح الكبير ... لبنان يحييك ، لانك ببطولتك ، وعلو اخلاقك ، فتحت قلوب بنيه ، ولبنان يقدر البطولة ، وعلو الاخلاق .

« لبس العيد من نسيج المواضي
حلة النصر فهو يختال فيها
ألنا العيد أم لمصر ... سواء
هي أخت وعيدها لاخيها

وتعالى الهتاف ، ودوى صوت البارود ، حين خرج الفاتح والامير الى شرفة القصر لتراها الجماهير :

— عاشت مصر بعزيزها .

— عاش لبنان بامير .

— لاعيش إلا بالاتحاد في ظل العزيز والامير .

◇◇◇

— تعال ، يافهد .

وكان العيد قد انتهى ، والجماهير تتهيأ للانصراف ، عندما وقف الامير ، ودعا قائد حرسه ، على مرأى ومسمع من الجميع . ولما دنا فهد ، وقد تحولت الابصار اليه ، وضع الامير يده على كتفه ، ونظر اليه نظرة طويلة ، ثم قال له :

— ما أنت بعد الآن فهد العرب ... أنت الامير ماجد ابن الامير سعد الدين الشهابي .

فاصفر وجه الفتى ، قال :

ـــ مولاي ...

واستولت الدهشة على الحاضرين ، فقال الامير :

ـــ لقد عرفت سرك ، وما أنت بعد بحاجة الى التنكر ، فهات يدك اصافحك ، وانس ما ضيك .

وصافحه بحرارة ... ثم التفت الى ابرهيم باشا ، وقال :

ـــ انتهى العيد ، وبقي عيد آخر ، أود ان نحتفل به بحضوركم. ولم يكن العيد الآخر هذا سوى ... عرس ماجد ووفاء .

تمت

DATE DUE

حسيمة ،عبد الله
في جبهة المجد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
81037876

American University of Beirut

[redacted]

General Library

892.78
Ha3995fA
C.1